أثـــر طرق الحـــج في التواصل اللغـوي (دراسة إبيستيمولوجية)

أ.د. ســـــامي ماضي إبراهيم[1]

مستخلص

إن عملية التواصل اللغوي هي السمة البارزة لوظيفة اللغة ،ولما كانت اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وحاجاتهم- فإن قدرة الإنسان تتمثل في نقل أفكاره للآخرين عن طريق عنصرين أساسيين، الاول : المتكلم الذي يريد أن ينقل أفكاره وحاجاته من خلال مجموعة طرائق، تتمثل باللفظ أو الإشارة أو الإيحاء، والثاني : المخاطب الذي يريد أن يتلقى تلك العناصر اللغوية التي تعبر عن تواصله مع المتكلم عبر مجموعة وسائل إيضاحيه، منها معنوية وأخرى لفظية ،فالأولى تتمثل بالتوافق والانسجام أو الاستئناس مع محيطه . المتكلم أو غيره . حتى يستطيع أن يكون مستقبلا جيدا، والثانية اللفظية التي تكون بالألفاظ، أو الكلمات التي يتلقاها من المتكلم. وبطبيعة الحال فإن أي تواصل لغوي، أو فكري لا يكون إلا عن طريق مجموعة مسوغات قد تكون علمية ،أو أدبية، أو تاريخية، أو فقهية، أو غير ذلك، وعليه فلا بد من وجود انسجام في مضمون الفكرة ،ولعل طرق الحج كانت وما زالت تمثل مفصلا مهما في التواصل اللغوي بين قوافل الحجيج، ومن البديهي أن يكون من بين تلك القوافل أناس يختلفون في اللغة أو اللهجة أو يتحدثون بلغة واحدة، ولكن أصولهم المعرفية تتفاوت وتتباين، وقد يكون بعضهم الآخر يتحدث لغة غير لغة البلدان التي تمر بها قوافل الحجيج ؛لأن الاسلام غير مقتصر على جنس من البشر دون غيره، أو لغة دون أخرى ،فصحيح أن القران الكريم نزله الباري عز وجل باللغة العربية ،ولكنه مرسل لكل البشرية من دون تفريق بين عرق، أو جنس،ولذلك تكمن أهمية تعلم اللغة العربية التي نزل بها القران تلك الرسالة السماوية الخاتمة لكل الاديان ،فضلا عن ذلك فإن لاختلاف اللهجات، وتعدد اللغات الأثر الأبرز في فهم قسم من معاني القران الكريم؛ولأن الانسان بطبيعته يميل الى الاختلاط الاجتماعي ، ويحاول أن يتعلم الاشياء التي من حوله ولا سيما اللغة التي تحيط ببيئته.

لذا كانت طرق الحج تمثل تواصلا لغويا ثريا في مختلف الثقافات المعرفية، فضلا عن ألفاظ الحياة اليومية المستعملة في لغة الحوار من أجل التفاهم، ومنها ألفاظ المأكل والملبس والشراب وغيرها من الاستعمالات الضرورية. كل هذا كان يحدث بسبب تجاذب قوافل الحجيج في طرق الحج.

ومن هنا ولدت فكرة البحث، الذي حاولت فيه أن أقف على الاندماج الثقافي، وأثره في التواصل اللغوي من خلال الاستعمال التداولي بين الحجيج ، ولأن العادات والتقاليد الاجتماعية لا تنتقل إلا من خلال التواصل اللغوي، وهذا الأمر يولد تقاربا بين الحجيج من جهة، وأثراء اللغة ألفاظا تشير إلى ديمومتها، وتقبلها إلى التقارض من اللغات واللهجات ،وعليه تمثل البحث في ثلاثة محاور، تسبقهما مقدمة، فالأول تمثل بمدخل عن عملية التواصل اللغوي ومفهومها، وفي المحور الثاني أوضحت أثر طرق الحج في التقارض اللغوي بين اللغة من جهة، واللغات المحلية من جهة، وفي الثالث تناولت الانعكاسات النفسية

---

[1]) الجامعة المستنصرية – كليـــة الآداب العـــراق

لمعاني التواصل اللغوي، ثم ختمت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم ما توصل إليه البحث وألحقته بقائمة المصادر والمراجع ، وآخر دعوانا أن

مقدمة: الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة والسلام على أبي القاسم محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد:

فإنّ الإنسان بصفته كائن اجتماعي يؤثر ويتأثر بما حوله من موجودات مادية أو حسية، فهو واللغة توأمان لا ينفصلان، فعندما يذكر تذكر معه والعكس صحيح، ومن مميزاتها أنّها وسيلة للتواصل مع المجتمع والأفراد، وهذا يظهر جليا في نشأتها ونموها وتطورها، وقد مرت دراستها بمراحل ومناهج عدة، ومنها ما سجله المنهج التاريخي الذي يقوم بدوره على ملاحظات وصفيه من عصور متتابعة ومختلفة،ومن تلك الملاحظات يمكن أن يستخرج القانون اللغوي،ولعل الرحلات الحجازية تمثل واحدة من الاستنتاجات اللغوية سواء أكانت داخل اللغة الواحدة أم بين مجموعة من اللغات، والجدير بالذكر أن ما سجله هؤلاء العلماء في رحلاتهم، يعد تصورا لغويا لعملية التواصل اللغوي التي كانت تتأثر بما حولها من الزمان أو المكان أو الأفراد، وما حفظته لنا من ظواهر لغوية لتلك المرحلة أو المحطة التي كانت ممرا أو طريقا لحجاج بيت الله الحرام، ولا سيما طرق الحج الإفريقية التي مثلت مرتكزا ومحورا مهما لإفريقيا والأندلس؛ لكونها الرابط بين الشرق والغرب وكل هذا وذاك كان له الأثر الواضح في التواصل اللغوي بين الأفراد والجماعات.

إن عملية التواصل اللغوي هي السمة البارزة لوظيفة اللغة، ولما كانت اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وحاجاتهم، فإن قدرة الانسان تتمثل في نقل أفكاره للآخرين عن طريق عنصرين أساسيين، الاول: المتكلم الذي يريد أن ينقل أفكاره وحاجاته من خلال مجموعة طرائق تتمثل باللفظ أو الإشارة أو الإيحاء، والثاني: المخاطب الذي يريد أن يتلقى تلك العناصر اللغوية التي تعبر عن تواصله مع المتكلم عبر مجموعه وسائل إيضاحيه منها، معنوية وأخرى لفظية ،فالأولى تتمثل بالتوافق والانسجام أو الاستئناس مع محيطه . المتكلم أو غيره حتى يستطيع أن يكون مستقبلا جيدا، والثانية اللفظية التي تكون بالألفاظ ،أو الكلمات التي يتلقاها من المتكلم وبطبيعة الحال، فإن أي تواصل لغوي، أو فكري لا يكون إلا عن طريق مجموعة مسوغات قد تكون علمية ،أو أدبية، أو تاريخية، أو فقهية، أو غير ذلك، وعليه فلا بد من وجود انسجام في مضمون الفكرة، ولعل طرق الحج كانت وما تزال تمثل مفصلا مهما في التواصل اللغوي بين قوافل الحجيج، ومن البديهي أن يكون من بين تلك القوافل أناس يختلفون في اللغة أو اللهجة أو يتحدثون بلغة واحدة، ولكن أصولهم المعرفية تتفاوت وتتباين. وقد يكون بعضهم الآخر يتحدث لغة غير لغة البلدان التي تمر بها قوافل الحجيج ؛لأن الإسلام غير مقتصر على جنس من البشر دون غيره، أو لغة دون اخرى ،فصحيح أن القرآن الكريم نزله الباري عز وجل باللغة العربية ،ولكنه مرسل لكل البشرية من دون تفريق بين عرق، أو جنس ،ولذلك تكمن أهمية تعلم اللغة العربية التي نزل بها القران تلك الرسالة السماوية الخاتمة لكل الاديان ،فضلا عن ذلك فإن لاختلاف اللهجات وتعدد اللغات الاثر الابرز في فهم قسم من معاني القران الكريم؛ ولأن الانسان بطبيعته يميل إلى الاختلاط الاجتماعي، ويحاول أن يتعلم الأشياء التي من حوله، ولا سيما اللغة التي تحيط ببيئته.

لذا كانت طرق الحج تمثل تواصلا لغويا ثريا في مختلف الثقافات المعرفية، فضلا عن ألفاظ الحياة اليومية المستعملة في لغة الحوار من أجل التفاهم، ومنها ألفاظ المأكل والملبس والشراب وغيرها من الاستعمالات الضرورية، كل هذا كان يحدث بسبب تجاذب قوافل الحجيج في طرق الحج.

وأما المنهج المتبع في بحثنا فهو المنهج التحليلي، الذي يعتمد على تضافر مجموعة من المناهج، محاولا الإفادة من مجالات المعرفة، إيمانا منا بأن النص لا يقف عند منهج معين؛ولأنّ المادة اللغوية مبثوثة في كتب الرحلات ،وغالبا ما تكون بين الأسطر –بمعنى أنها ليس تحت عنوان واحد– محاولا استنطاقها قدر الإمكان وتوظيفها توظيفا لغويا، يمثل التأثر والتأثير في عملية التواصل اللغوي ، ومن أجل هذا فقد كانت النصوص تارة من الشعر وأخرى من النثر؛ فضلا عن الأمثال ،وكل هذا هو رصد لحالات أو تسجيل لملاحظات لغوية، تعتمد على قدرة صاحب الرحلة وثقافته الأدبية واللغوية، ولانّ علماءنا كانوا ممن يجمعون أغلب العلوم ومعارفها؛ لذا كانت المادة اللغوية مبثوثة، في ثنايا الرحلات، كما هو حالها حين سجلها، إذ كانت مبثوثة بين طرق الحجيج وقوافلهم.

ومن هنا ولدت فكرة البحث الذي حاولت فيه أن أقف على الاندماج الثقافي، وأثره في التواصل اللغوي من خلال الاستعمال التداولي بين الحجيج ، ولأن العادات والتقاليد الاجتماعية لا تنتقل إلا عن طريق التواصل اللغوي، وهذا الأمر يولد تقاربا بين الحجيج من جهة وأثراء اللغة ألفاظا، تشير الى ديمومتها، وتقبلها إلى التقارض من اللغات واللهجات ،وعليه تمثل البحث في ثلاثة محاور تسبقهما مقدمة، فالأول تمثل بمدخل عن عملية التواصل اللغوي ومفهومها، وفي المحور الثاني أوضحت أثر طرق الحج في التقارض اللغوي بين اللغة من جهة، واللغات المحلية من جهة، وفي الثالث تناولت الانعكاسات النفسية لمعاني التواصل اللغوي، ثم ختمت البحث بخاتمة، ذكرت فيها أهم ما توصل إليه البحث وألحقته بقائمة المصادر والمراجع.

كلمات مفتاحيه (التواصل اللغوي.. التقارض اللغوي.. الانعكاسات النفسية.. طرق الحج الإفريقية.. أثر طرق الحج)

المحور الأول: مدخل في التواصل اللغوي

للتواصل اللغوي في اللغة معان عدة، ولعل أبرزها ما يتلاءم مع المعنى في بحثنا، ما ذكره قسم من علماء اللغة، ومنهم ابن فارس(ت٣٩٥هـ)، إذ يقول:(الواو والصاد واللام : أصل واحد يدل على ضمِّ شيءِ الى شيءِ حتى يعْلقه، ووصلتهُ به...وصلتُ الشيء وصلاً والموصول به وصلٌ بكسر الواو)[٢]، وكذلك أورد الجوهري(ت٤٠٠هـ) معان قريبة مما ذكره ابن فارس:(والتواصل ضد التصَارم ووصله توصلاً إذا أكثر من الوصل) [٣]، وجمع لنا ابن منظور(ت٧١١هـ) أغلب معاني الوصل وأضداده، ويكون بذلك أوسع من غيره في لمِّ معانيه يقول: (ووصل الشيء الى الشيء وصولاً وتوصل إليه إنتهى إليه وبلغه ومنه قول أبي ذؤيب الهذلي:

توصَّلَ بالرُّكبانِ حيناً، وتُؤلِفُ الـ

---

[٢] معجم مقاييس اللغة ١١٥/٦.

[٣] الصحاح ١٨٤٢/٥.

جوارَ، ويغشيها الأمانَ ربابُها

ووصَّله إليه وأوْصله: أنهاه إليه وأبلغه إياه...) [٤]. ومفاد كلامه يشير إلى الوصول والبلوغ بمعنى أنَّ هناك طرفين في عملية التواصل، وبينهما رسالة من أحداهما إلى الآخر مهما كان مضمونها سلباً أم إيجابياً. ومن جملة المعاني التي ذكرها أيضاً: الاقتران، والاقتراب، والانتساب، والاجتماع، والتضام، والوصول، والبلوغ، والانتهاء فضلاُ عن أضداده، فهي الفراق، والانقطاع، والابتعاد، والبين، والهجران[٥].

والتواصل اللغوي في الاصطلاح يعني نقل أو تبادل للمعومات بين طرفين الأول المرسل، وهو يقصد في الإرسال أو لا يقصد حينها يترتب عليه تغير المواقف والسلوكيات الدالة على عملية التواصل[٦].

وعليه يكون ظاهرة اجتماعية سلوكية، تندرج ضمنها أغلب الأنشطة التي يمارسها في حياته[٧]، ويمكن القول إنَّه يمثل عملية لنقل الأفكار والتجارب وتبادل المعارف المعرفية وغير المعرفية بين الأفراد والجماعات، ويفترض التواصل اللغوي- باعتباره نقلاً وأعلاماً- مرسلاً ورسالة ومستقبلاً، وشفره يتفق عليها كلٌّ من المتكلم والمتلقي[٨].

وبهذا يكون التواصل اللغوي عبارة عن عملية تفاعلية بين الأشخاص لتبادل الأفكار والمعلومات؛ فضلاً عن كونه يشتمل على استقبال تلك الأفكار وتفسيرها، وهو لا يقتصر على الإنسان وحده ، وإنما يشمل مجمل الكائنات الحية، وخير دليل على ذلك قوله عزوجل:(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ] {النمل/١٨}، ولكن لكلّ كائن طريقة في التواصل، والإنسان بسمته التكوينية يمثل أرقى تلك المستويات في الطرق، بدءاً من اللغة سواءً المنطوقة أو المكتوبة، وحتى الوسائل غير اللفظية كالإشارات والإيماءات، فضلاً عن لغة الجسم والعيون وتعبيرات الوجه[٩].

وللتواصل اللغوي وظائف عدة لعل أبرزها هو التعبير عن حاجة الفرد وعلاقته بالمجتمع، وعن طريقه يستطيع أن يحقق مشاعر الانتماء للمجتمع، وكذلك تسويق إنتاجه اللغوي أو الأثر الحضاري أو الفكري، وخير دليل على ذلك، ما ورثناه عن الحضارات السابقة على سبيل التمثيل القانون التي جاء في مسلة حمورابي والنقوش السومرية والآشورية والأكدية والنبطية وغيرها الكثير من الحضارات الأخرى ،التي وصلت لنا عن طريق التواصل اللغوي المتمثل بالملفوظ المكتوب سواء بلغة الرموز أو غيرها التي سجلها لنا التاريخ عبر أبنائه، بمختلف مستوياتهم المعرفية.

ومن وظائفه أيضاً: تبادل المعلومات والرسائل اللغوية وغير اللغوية، وهذا التبادل يمكن أن يكون قصدياً، بمعنى أنَّ المتكلم يقصد المتلقي بشكل مباشر، أو لا غير قصديّ، وإنما يذكره بشكله عام، أو

---

[٤] لسان العرب ٨٦٨/١١.

[٥] ينظر: لسان العرب ٨٦٨/١١-٨٧٣.

[٦] ينظر: مدخل في تكنولوجيا الاتصال الاجتماعي١٢.

[٧] ينظر: التواصل اللغوي ٦.

[٨] ينظر: التواصل اللساني والسيميائي والتربوي٦.

[٩] ينظر: التواصل واللغة ٢.

عابر، وللمتلقي الحرية في أخذه أو رفضه، كما يظهر ذلك جلياً في طرق الحج، إذ كان الحاج غير ملزم بأخذ عادات وسلوك أهل تلك المدن، التي يمرون بها، وإنَّما يمكن له أن يستمع، أو لا يستمع لها، وهذا ما لاحظناه في السلوكيات السلبية التي أوردها أصحاب الرحلات الحجازية في تفادي الكثير من سلوكيات تلك المجتمعات، والاقتصار على السلوكيات الإيجابية، وفقاً لحاجة الحجاج، وبما ينسجم مع الرحلة العقائدية الدينية التي يحاول الحجاج التواصل الروحي والديني مع رحلتهم إلى بيت الله الحرام وقبر رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وسواء أتعددت وظائف التواصل اللغوي قلت، أو كثرت فإنّ جلَّها يكمن في التبادل والتبليغ والتأثر؛ لأنَّه بطبيعة الحال فالأفكار تعبرّ عن صاحبها، وبالمحصلة يكون لها تاثير وجداني أو معرفي في نفوس المتلقي[١٠]. ولما كانت اللغة وظيفتها التواصل، وهي سمتها العليا التي أشار إليها جلُّ اللغويين القدامى والمحدثين في دراساتهم، فضلاً من اللسانين الغربيين باعتبارها نسق من العلاقات والإشارات. والدوال هدفها التواصل والتبليغ، وخاصة عند اتحاد الدال مع مدلوله[١١]؛ ولأنَّ الشعر ديوان العرب فقد كان أغلب ما يعبر عنه الأعرابي آنذاك عن حاجيته بالشعر فضلاً عن النثر مع ملاحظة استعمال الكنايات والمجاز الذي يثير من وجدان المتلقي أو حتى التلاعب بالألفاظ من أجل أن يبقى التواصل المعرفي هو سيد الموقف، وأغلب ذلك يكون بقصد من المتكلم؛ لأنَّ العرب امتازت بالفصاحة والبيان. وهذا ما لمسناه عند طرق الحجاج فقد كان الناس يعبرون عن المكان، الذي يمرون به في رحلتهم بالشعر، إذ يصفونه كي يبقى محفوظاً في النفوس، وبطبيعة الحال فإن الشعر أحفظ، ولذلك مثل هذا الاتجاه في طرق الحج الظاهرة الأبرز– وهذا ما يظهر لنا في المحورين الآخرين من البحث–.

آليات التواصل اللغوي: مما لا شك فيه أنَّ لكلّ ظاهرة أو مزية في اللغة لها آلية في تواصلها، أو توصيلها ومنها التواصل اللغوي:

زمان التواصل: إذ لا بد أن يكون للزمن أثر في إطراء التواصل؛ لأنهَّ يعكس انفعالات محببة أو غير محببة، وهذا يظهر لنا جلياً في رحلات الحج التي تصل إلى ثمانية أشهر، وبعضها أكثر من ذلك، وخصوصاً تلك التي تقدم من إفريقيا وبلاد الأندلس، التي تبعد عن الحجاز مسافات طويلة، مثل رحلة العبدري من المغرب ورحلة ابن خلدون وغيرهم من الرحالة فضلاً عن رحلات المستشرقين، الذين عبروا عن طرق إفريقيا، ولكن الزمان لا يكون مفتوحاً، وإنما ينتهي بزمن محدد.

مكان التواصل: أنّ للمكان أثراً في عملية التواصل اللغوي وإغنائه، وغالباً ما يكون شريكاً في اللفظ، بمعنى أن يضمن التواصل أسماء الأماكن والمدن، التي يمر بها الحجاج على سبيل التمثل أو التي يشتاقون إليها في طريقهم، وهذا يظهر جلياً في رحلاتهم عبر تلك الطرق، فغالباً ما تكون تلك الطرق مفترقاً يمر به كثير من الناس، ويولد لديهم الشعور بالغربة تارة أو بالأنسة والتآلف، ويعتمد ذلك على أفراد تلك المجتمعات.

---

[١٠] ينظر إستراتيجية التواصل اللغوي ٧.

[١١] ينظر م.ن، وينظر الخصائص ٣٣/١ على سبيل التمثيل عند القدامي.

لغة التواصل : إنَّ اللغة سمة بارزة أيضاً في عملية التواصل اللغوي فهي تمثل حلقة وصل معرفي بين الجماعات فضلاً عن الأفراد، وهذا لاحظناه في رحلات الحج عند تميّزهم بين لغات المجتمعات،التي يمرون بها من حيث الفصاحة، التي ينعتون بها أو اللكنة والاستهجان من خلال اللحن في الكلام.

السياق: إنَّ السياق بصفته قرينة معنوية في عملية التواصل اللغوي فإنَّه يدخل في تحديد أغلب المعاني في الخطاب ولا سيما بين طرفي النص، وهما المتكلم والمتلقي. وهناك آليات أخرى يضيق بذكرها، المقام، فاقتصرت على الأبرز، فضلاً عن كونه المتمثل في طرق الحج ورحلات الحجاج.

عناصر التواصل اللغوي: هما الأبرز في عملية التواصل والعمدة فيها: المتكلم، وهو صاحب النص أو الرسالة المراد إيصالها إلى المجتمع.

والمخاطب أو المتلقي، وهو الذي يتلقى النص والرسالة المراد إيصالها، فالمتكلم يعد المصدر الحيوي في عملية التواصل اللغوي، وهو الباعث في إنشاء الخطاب الموجه إلى المتلقي[١٢]، والرسالة أو النص وهي الخطاب المراد إيصاله إلى المتلقي، إذ هي مجموعة من العناصر اللغوية المادية والمعنوية ، التي يبثها المتكلم من مخزونه المعرفي[١٣].

والطرف الثالث: المتلقي حيث يمثل القطب الثاني في العملية اللغوية التواصلية، فضلاً عن كونه متلقي الرسالة التي يقوم بعملية فك رموزها اللغوية عن طريق مخزونه المعرفي.

وعليه لابد من وجود مجموعة من الخصائص التي ينسجم بها ذلك التواصل، لكي يكون ناجحاً أو مميزاً ومنها أنَّ التواصل يجري وفقاً للأعراف الاجتماعية، مع ملاحظة اختلافها من شخص لآخر، وأنَّه يكون باللغة المتبادلة بين الأفراد والجماعات، فضلاً عن العلاقات السيمائية الأخرى، مع ملاحظة الاشتراك في الزمان والمكان والمعتقدات والغاية التي تسيّر الخطاب[١٤] وهذا كلُّه يكون فيصلاً مميزاً في عملية التواصل اللغوي.

إنَّ المتكلم ينبغي عليه مراعاة أحوال المخاطب، إذ لا يكون تواصلاً لغوياً من دون ذلك؛ لأنَّه عن طريقه يمكن تحديد طبقات التواصل اللغوي وعندها يكمن النتاج المعرفي؛ فإنَّ الألفاظ مطروحة في الطريق والعبرة بمن ينتقيها[١٥]، وقد أوضح ذلك الأمر علماء العربية بشكل جلي إذ يقول: بشر بن المعتمر (ت٢٢٩) (وينبغي للمتكلم أنْ يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكلِّ طبقة من ذلك كلاماً، ولكلِّ حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، وأقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات) [١٦].

ويفهم من هذا النص أنّ للفظ علاقة وطيدة بالمعنى من أجل أنْ يؤدي عملية التواصل اللغوي على الوجه الأكمل، إذ إنّ طرق الحجاج كانت تلتقي فيها مختلف المقامات والطبقات من العامة والخاصة،

---

[١٢] ينظر: التواصل اللساني والشعرية٢٤.

[١٣] ينظر: استراتيجة التواصل اللغوي٨.

[١٤] ينظر: م.ن ١٠-١١.

[١٥] ينظر : البيان والتبين ص١/١٥.

[١٦] البيان والتبين ٤٢/١.

فمنهم العالم والشاعر واللغوي، ومنهم الفقيه والقاضي، ومنهم عامة الناس من النساء والرجال، وعليه، لا بد أن يكون للتواصل اللغوي ألفاظه الواضحة والمفسرة حسب السياق، وما يقتضيه حال تلك الأفراد أو الجماعات من سلك تلك الطرق، وبعض سالكيها قد لا يجيد اللغة بقواعدها الصحيحة، ولا يفهم من ألفاظها الجزلة، وربما بعضهم لا يتحدث العربية.

إذ هناك عوامل لغوية يمكن لها أن تؤثر في عملية التواصل اللغوي، ومنها الثنائية اللغوية، ونعني بها الوضعية التي يستعمل فيها الشخص، بمعنى أنَّ اللغة العربية، على سبيل المثال، فيها الفصيح والأفصح والنادر والشاذ والتقابل في الدلالة، وكذلك الازدواجية اللغوية، التي نعني بها أن يتكلم الفرد أو الجماعات أكثر من لغة[١٧]، وهذا ما لاحظناه عند قسم من الرحالة معرفتهم باللغة الرومية والإفريقية عندما عبروا طرق الحج ومفترقها عبر مصر، أو السودان، أو تونس، أو طرابلس. فضلاً عن الرحلات عبر الشام والعراق.

ومن العوامل التي يجب مراعتها هي العوامل النفسية والاجتماعية، التي تمثل العوامل غير اللغوية، ويمكن لها أن تؤثر في عملية التواصل اللغوي[١٨]. ويمكن لنا أن نستنتج أن هناك إستراتيجيات في الخطاب، وبالمحصلة هو نتيجة للتواصل اللغوي، يمكن أن تساعد المتكلم في إيصال مراده وقصده للمتلقي وهذه هي أحدى فنون التواصل عن طريق استعمال الإمكانات والوسائل المتاحة، بطريقة مثلى لتحقيق أهداف التواصل اللغوي، ولعل الإستراتيجية في الخطاب تمثل كل مكوناته، التي تساهم في تحقيق التواصل اللغوي المتمثلة بقدرة المتكلم على معرفة متى وكيف يستعمل اللغة، ومعرفة ما يجب أن يقوله في ظروف معينة، ومتى يجب السكوت[١٩]، مع مراعاة المعرفة الشاملة بالمقام الذي تجري به اللغة، لكي يتمكن في تنويع أساليب كلامه على وفق ما تقتضيه المواقف السياقية[٢٠].

وتشمل هذه الإستراتيجيات النحو الآتي: الإستراتيجية التضامنية: وتشمل المكاشفة والتصغير، والطرفة، والمصانعة، واللهجة، والتنظيم. الإستراتيجية التوجيهية. الإستراتيجية التلميحية. الإستراتيجية الحجاجة.

والملاحظ أنَّ التواصل اللغوي في طرق الحج الإستراتيجية بين الحجاج، قد مثل كلٌّ أنواع التواصل وأساليبه وآلياته، وهذا يعود إلى طبيعة تلك الطرق؛ لأنَّها تمثل ملتقى لكلٌّ وأغلب طبقات المجتمع والجماعات، وهذا ما أوضحه بشكل مفصل أصحاب الرحلات، الذين عبروا الطرق الإفريقية نحو ابن جبير وابن رشد وابن بطوطة وابن خلدون والعبدري وغيرهم.

ولقد أشار هؤلاء الرحالة إلى أبرز ما مثل التواصل اللغوي ألا وهو الشعر، إذ لا تخلو رحلة من دون ذكر للشعر العربي الذي نقلوه أو انشدوه أو سمعوه عبر تلك الطرق الإفريقية وهذا يشير إلى سمة التواصل اللغوي الكبرى، فضلاً عن النثر الذي تمثل بالأمثال والقصص والحكايات التي صادفتهم، فضلاً عن نقلهم للمعاني بصور أخرى التي غالباً ما تكون متكاملة في وصف المكان والناس في ذلك

---

[١٧] ينظر إستراتيجية التوصل اللغوي ٢٧.

[١٨] ينظر: م.ن ٢٨-٢٩.

[١٩] ينظر استراتيجيات الخطاب ٥٦.

[٢٠] ينظر: الكفايات التواصلية والاتصالية ٨٨، واستراتيجيات التواصل اللغوي ٤٧.

المكان أو الطريق، وذكر أوصافهم ولباسهم ومأكلهم وحالتهم الاقتصادية والتجارية، فضلاً عن زراعتهم، واشتهار مدنهم بأشياء سجلها أصحاب الرحلات التي عبرت عن تلك الطرق سواء أعبرت في البحر أم البر من صحارى أم مدن.

ويمكن لي أن أقدم مثالاً لما سبق من مفاهيم ومعارف عن التواصل اللغوي – قد سجله أبو إسحاق الحربي(ت٢١٦هـ) عن موضع الشقرة، وهي مفترق طرق للحجاج تقع بطريق فيد بين جبال حُمر على نحو ثمانية عشر ميلاً من موضع النخيل،... وبها– أي الشقرة– قصورٌ وحوانيت، وسوق كبيرة ، ونخل في ميمنتها، وآبار ماؤها عذبة ومسافة يومين من المدينة... [٢١] ونقل لنا شعراً عن أحد بني كَلاب قاله في ذلك الموضع:

حنّ الى الشُّقرة نزاع وللصبا واللهو أتباعُ

وقلّ من أصبح ذا كلفة إلاّ له همّ وأوجاعُ

تزعجُ قلباً كلفاً، ضمه جوانح يحتج أضلاعُ

كيف بالشقرة إذ دُونها مَرّت فَضَا أفيحُ لمّاعُ

علّقتُ بالشقرة إنسانةً من دونها بابٌ ومنّاعُ

فالحمدُ لله على بُعده قد صاق من يذكرها الساعَ

إلا بعون الله أو لطفهِ فإنَّه مُعطِ ومناعُ

نلحظ أنَ النص الشعري قد مثل عبر عملية التواصل اللغوي التي بدأها المتكلم، وهو الشاعر، والمتلقي هم جماعات وأفراد، وهذا ما أورده ابو اسحاق الحربي، إذ نقل نص الرسالة وهي القصيدة التي جسد فيها الشاعر ما يدور في خلجه من أفكار وانبعاثات نفسية أراد إيصالها للمتلقي، وكان خير وسيط، هو طرق الحجاج ، وهو موضع الشقرة التي كان يمر بها الحجاج لقضاء مناسك الحج، ومن جهة أخرى فإنَّ عملية التواصل اللغوي في التراث العربي، ولا سيما في أماكن يلتقي بها الناس كلُّ عام مرة أو أكثر أو أقل عندها فلا بد من توضيح ذلك الفكر في التراث؛ ولأن الشعر ديوان العرب فإن ابرز ما يقدم ليعبر عن فكر الإنسان العربي، وهو الشعر عن طريق خطاب المتلقين على مختلف مستوياتهم اللغوية، ولكن الأبرز في ذلك يبقى في التواصل، وهو يكون بمفردة أو مجموعة مفردات تمثلها جمل معينة، وإنما يكون بواسطة نصوص متكاملة في وحدة الموضوع باعتباره وحدة تواصلية متكامل[٢٢].

---

[٢١] المناسك و أماكن طرق الحج ٥٢٣–٥٢٤ بتصرف.

[٢٢] ينظر: استراتيجة التواصل اللغوي١٧.

ونلحظ أن الشاعر في مقطوعة قد أبدع في استعمال الأفعال الكلامية، وكلامه تجسيد في مستويات حسب أقدار المعاني والمقامات، وغالباً ما يجعل من نفسه موطن للشاهد الخاص، ولكنه يريد الشاهد العام، إذ في حنينه الى الشقرة، وهي(المكان) الذي يأوي إليها الحجاج في رحلتهم للمدينة. لما له من السحر في طبيعته والجمال المميز في الاستراحة بسبب وفرة الكلأ والماء، ونلحظ أنَّه كررها (لفظة الشقرة) أكثر من مرة بشكل مباشر، وفيها دلالة على تعمق المكان في نفوس من مرّ به من الحجاج، فضلاً عن قوافلهم، وكيف أنَّها أصبحت أمينة لمن يريد أنْ يسلك هذا الطريق، وهكذا قدّم الشاعر طريقته في التواصل اللغوي لكلِّ من يريد أن يأتي عبر هذا الطريق أو يمر به.

ويختم مقطوعته بالحمد لله والثناء عليه، وأنّ زيارتها تكون بلطف الله عز وجل، وعون منه، مع مراعاة أنَّ الشاعر استعمل الأشارة المباشرة للشقرة، وهي توضح مدى انفعال المخاطب مع المكان، وبالمحصلة يصفه للمتلقين بصفاته المحببة. وقد أفاد الشاعر من عنصري المكان والزمان، فالأول الشقرة ذات الأشجار والنخيل ووفرة الماء، والثاني زمان التقاء قوافل الحجاج عند تلك الطرق لأداء فريضة الحج، ومن الإستراتيجيات المميزة التي استعملها الشاعر المكاشفة في طرح تصور واضح عن تلك المدينة.

المحور الثاني:- التقارض اللغوي في طرق الحج

تعد ظاهرة التقارض في اللغة العربية ظاهرة واسعة الاستعمال ؛ لما تمتاز به من السعة في الاستعمال، فضلاً عن التطور الدلالي، الذي قد ينتج بسبب الاحتكاك مع الأمم الأخرى. وقد أشار إليها اللغويون منذ القدم، ولا سيما أصحاب المعاجم، إذ عبروا عنه بدلالات، ومضامين متعددة، ولكنها تشترك بجذر وأصل لغوي واحد، وقد جمع ذلك المعنى ابن منظور (ت٧١١هـ) قائلاً:((هم يتقارضون الثناء بينهم، ويقال للرجلين: هما يتقارضان الثناء في الخير والشر أي يتجازيان ومنه قول الشاعر.

يتقارضون إذا التقوا في موطن

نظراً يزيلُ مواطئ الأقدام

وتقارضا الشيء أو الأمر تبادلاه))(٢٣) ، وكذلك عبر عنه الجوهري والفيروزآبادي بالمعنى نفسه(٢٤).

ونلمح من كلام اللغويين أنّ التقارض في المعنى العام- يدل على الأخذ والعطاء والتبادل بين طرفين سواء أكان التبادل بالخير أم بالشر. وفي الاصطلاح- هو أنْ تأخذ كلمة كل ما يتعلق بآخرى لتعامل معاملتها، كما يختص بها تلك الأولى، ويكون في الأحكام اللغوية والنحوية والصرفية والدلالية والمعاني والإعراب بين كلمتين أو أكثر[٢٥].

والتقارض اسمٌ مصدره تقارض يدل على التبادل في الغالب، ومنه تقارض الرفيقان الموقف: تبادله بينهما، وتقارض الجار من الثناء: إثناء كلٍّ منهما على الآخر، وتقارض الخصمان النظر: نظرة

---

[٢٣] لسان العرب١٣٨/٩ بتصرف.

[٢٤] ينظر: الصحاح، ١١٠٤/٣، والقاموس المحيط مادة قرض.

[٢٥] ينظر: تقارض الالفاظ في الدلالة والإعراب١٣، وظاهرة التقارض في النحو العربي، والتقارض النحوي في القرآن الكريم ٣٥٢.

كل منهما على الآخر بحقد وغضب، وتقارض الشاعران: إنشاد كل منهما الآخر الشعر،ولعل أبرز ما سجله أصحاب الرحلات من تقارض هو على مستوى اللغة بمختلف مستوياتها اللغوية، وقلما يشير رحالة إلى الاقتراض اللغوي، الذي يكون بمعنى لغة من لغة، وإنَّما كان التقارض في طرق الحج الافريقية أغلبه في مستوى اللغة الواحدة، وهي اللغة العربية.

أولاً:- التقارض بين الأصوات:

- صوت القاف: أورد العبدري(ت٧٢٠هـ) مسألة عن أهل برنيق في نطقهم لصوت القاف، وهي ملاحظة دقيقة تدل على حسه اللغوي لرصده ظاهرة صوتية، تميزت بها مناطق دون غيرها، كانت ممراً لحجاج إفريقيا وقوافلها. يقول ثم وصلنا إلى أرض(بَرْنيق)- بالفتح ثم السكون وكسر النون، وياء ساكنة وقاف- وهي مدينة تقع بين الإسكندرية وبرقة على الساحل[٢٦] كانت قافلتهم التي تعتزم أداء فريضة الحج ، قد مرت بهذه المدينة، ويصفها العبدري بالأرض الطيبة، والزراعة فيها كثيرة،وبها قصور عدة يخزن فيها. وأولها القماناس. وهي ثلاثة قصور متقاربة، واحدها قمينس هكذا ينطقون به على لغتهم المعروفة(بالقاف) [٢٧]. وما أورده هو ظاهرة تقارض تحدث بين الأصوات تقع بين صوتي القاف ومجهور الكاف، وقد التفت إليها أغلب اللغويين القدامى والمحدثين[٢٨].

ومخرج القاف من أقصى اللسان، وما فوقه من الحنك الأعلى، وأما الكاف فمن أسفل من موضع القاف من اللسان ومايليه من الحنك الأعلى[٢٩]. وطبقاً لقانون المماثلة فإنَّ الأصوات اللغوية تتأثر بعضها ببعض عند النطق بها في الكلمات والجمل، فتتغير مخارج بعض الأصوات أو صفاتها لكي تتفق في المخرج والصفة مع الأصوات المحيطة بها في الكلام؛ ولأنَّ المماثلة تقع تحت تأثير صوت ثالث قريب منه في الكلمة أو الجمل[٣٠].

فقد ذكر السيرافي(ت٣٦٨هـ) أنَّه يمكن أن ينطق صوتاً متفرعاً عن القاف، وهو مثل الكاف التي كالجيم والجيم التي كالكاف[٣١]، وهي الكاف المهجورة التي تتمثل اليوم بالجيم التي ينطقها أهل القاهرة في لغتهم الدراجة[٣٢].

- الكاف والهمزة: ويسجل لنا العبدري ملاحظة مميزة قد سمعها في تلبية لبعض الحجاج ومفادها: إنَّه سمع حاجاً مصرياً ينطق عوض الكاف همزة إذ يقول: في التلبية بدلاً عن: (لبيك اللهم لبيك):(لبيأ اللهم لبيأ)! أي يجعل الكاف همزة[٣٣].

---

[٢٦] ينظر: معجم البلدان ٤٠٤/١.

[٢٧] رحلة العبدري ١٥٠بتصرف.

[٢٨] ينظر: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد ٢٤٨-٢٤٩.

[٢٩] ينظر: الكتاب٤٣٣/٤.

[٣٠] ينظر: التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه ٣٠.

[٣١] ينظر: شرح الكتاب٤٥١/٦، والدراسات الصوتية عند علماء التجويد ٢٤٩.

[٣٢] للمزيد من التفصيل ينظر :م.ن ٢٤٨-٢٥٦.

[٣٣] ينظر: رحلة الرحلات ٨٤/١.

وهذه الظاهرة غير معروفة في لهجات العرب، وإنَّما يعزوها أهل اللغة إلى كثرة الكلام، أو بمعنى السرعة في الترديد، وهذه تملي على لسان المتكلم نوعاً من السرعة والعجلة في إخراج الألفاظ، وهذه العجلة غالباً ما تورث الزلل، وتوقع في العثار، وقد نبه العلماء إلى ذلك[٣٤]. وعلى هذا الأساس يكون إبدال الكاف همزة في قول الحاج المصري الذي رصده العبدري هو من باب الزلق، وهو انزلاق اللسان في الخطأ اللغوي بسبب العجلة[٣٥]، وعده الدرس الحديث من علل اللسان، ونتيجة للسلوك اللغوي المنحرف[٣٦]. ولعل ما يفسر ذلك أنّ التلبية تكون مسترسلة وبسرعة، فضلاً عن التكرار، لذلك قد يقع الإنسان فيها بالخطأ أو الزلل نتيجة لذلك الموقف، ومهما تكن الأسباب فهذه تعد ألتفاته ذكية من العبدري في رصد ذلك الخطأ أو اللحن عند الحاج المصري، الذي أنتقده، وهو يؤدي مناسك الحج، الأمر الذي يعد حرصاً على أداء المناسك بلفظها الصحيح.

– تسهيل الهمزة وإبدالها:

لقد شغلت الهمزة جلَّ دراسات اللغويين الصوتين القدامى والمحدثين، أكثر من أي صوت آخر، مما يحدث لها من تغير في أحوالها بين التحقيق والتسهيل والإبدال، وقد سجل لنا ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) في رحلته ملاحظة لطيفة ودقيقة حول الهمزة، وكانت حول روي الهمزة في قصيدة بعثها له صاحبه الوزير الكبير العالم كاتب سر السلطان ابن الأحمر، صاحب غرناطة الحظي لديه أبي عبد الله بن زمْرك يخاطبه فيها، وكان قد بعثها له مع قافلة الحجاج، التي أتت إلى الحج بيد إسحاق ابراهيم الساحلي، وهو في مصر، بمعنى قبل أن يذهبا إلى أداء فريضة الحج، عندما التقت القافلتان في مصر. والقصيدة في مدح الملك الظاهر صاحب مصر، ويطلب ابن خلدون رفعها إلى السلطان، وعرضها عليه بحسب الإمكان؛ لأنَّ ابن خلدون يحظى بمكانة عند السلطان، والقصيدة كتبت بالخط المغربي، واعتذر بأنَّه استناب في نسخها، فكتبت همزة رويِّها ألفاً. قال الساحلي، وحقها أن تكتب بالواو؛ لأنَّها تبدل بالواو وتسهل بين الهمزة والواو وحرف الإطلاق أيضاً يسوقها واواً. هذا مقتضى الصناعة بمعنى القاعدة، وإن قال بعض الشيوخ تكتب ألفاً على كلِّ حال على لغة من لا يسهل لكنه ليس بشيء ومطلع القصيدة:

أمدامعٌ منهلّةٌ أم لؤلؤ

لمّا استهل العارضُ المتلألئ

---

[٣٤] ينظر: أدب الدنيا والدين ٢٤١.

[٣٥] ينظر: مباحث علم اللغة واللسانيات ٣٢٩.

[٣٦] ينظر: رحلة ابن خلدون ٢١٥–٢١٦.

ومن المفيد أن نذكر أنَّ أغلب اللغويين من القدامى والمحدثين، قد اشترطوا لهذه الظاهرة أن يكون تقارباً بين الحرفين يستعمل أحداهما مكان صاحبه على أنْ يؤول أحد اللفظين الى الآخر عند التصرف، بمعنى أنَّ القرب في المخرج أو الصفة، شرط أساسي في كلِّ عملية إبدال أو تسهيل[٣٧].

وظاهر القول إنَّ الهمزة تخفف في مواضع عند القدامى والمحدثين من اللغويين، إما تخفيفها بالقلب إلى صوت يجانس حركة ماقبلها نحو خطائيء= خطائي، وأما تخفيفها بالحذف القياسي أو الجائز نحو العِبء= العِبُ ، أو تخفيفها بهمزة بين بين نحو رؤوس= رووس، وفؤوس، فُووس، أو تخفيفها بالقلب المكاني بئر = آبار[٣٨].

ثانياً: التقارض بضبط بنية الاسم:-

وهذه الظاهرة تعرف بالمثلث اللغوي، كأنْ يكون للاسم أكثر من معنى، وكلٌ يرجع إلى ضبط بنيته بالحركات، سواء بالضمة أو الفتحة أو الكسرة، وهذا التغير يكون في فاء الكلمة فيحصل هذا التغير في الدلالة. أو المعنى على سبيل التمثيل: البُر، البَر، البرِ، ولكلِّ واحدة منها دلالة ،وكذلك كلمة السبت بفتح السين هو اليوم المعروف من أيام الأسبوع، وبالكسر هي النعال المدبوغة بالفرط اليماني، وبالضم نبات شبيه الخمطي[٣٩].

– ويسرد لنا العبدري واصفاً مدينة المنستير عند مرور قافلة الحجاج فيها: والمنستير من الرباطات المشهورة المذكورة، وتحكى لها مآثر وفضائل كثيرة، وبها قبور الصالحين ما لا يعد كثرة، والمنستير بضم الميم هكذا سمعت أهل افريقية يتلفظون به[٤٠]، وكذلك ضبطها ياقوت الحموي في معجمه بضم الميم، وهو موضع بين المهدية وسوسة بإفريقية، بينه وبين كل واحدة منها مرحلة، وهي خمس قصور يحيط بها سور واحد، ويسكنها قوم من أهل العبادة والعلم. وأرباب المنستير قوم من قريش من ولد الربيع بن سليمان وهو اختطه عند دخوله إفريقيا،وبه عرب وبربر[٤١].

ولعل ما ذكره ياقوت الحموي من تنوع السكان من عرب وبربر، يصور لنا أنّ البربر ينطقونها بالضم، والعرب تفتحها وتكسرها، ويبدو لي أن هذا النوع هو مقصد العبدري بأهل إفريقيا، نطقهم لها بالضم، وهو من باب التقارض في بنية الكلمة، وما يسميه أهل اللغة بالمثلث اللغوي.

ثالثاً: التقارض في الأساليب والتراكيب

من الخطاب إلى الغيبة: وهذا باب دقيق العبارة لطيف، لصيق بعلم المعاني في البلاغة، وهو الالتفات بمعنى نقل الكلام من أسلوب إلى آخر، ومن فوائده صيانة السمع عن الضجر والملل، لما جلبت عليه النفوس من حب التنقلات والسآمة بين الاستمرار على منوال واحد[٤٢]. وقد أورد العبدري في رحلته شاهداً قرآنياً أثناء محاورته مع الشيخ أبي محمد بن عبد السيد في تونس عندما حطت ركابهم

---

[٣٧] للمزيد من التفصيل ينظر: القراءات القرآنية بين الدرس الصوتي القديم والحديث ٤٦-٤٧.

[٣٨] للمزيد من التفصيل ينظر :الهمزة في دراسات القدامى والمحدثين ٥٧-٦٤.

[٣٩] ينظر: شرح مثلثات قطرب، ٢٢-٢٣.

[٤٠]. ينظر: رحلة العبدري ١٥٣.

[٤١]. ينظر معجم البلدان ٢٠٩/٥.

[٤٢] ينظر: الإتقان في علوم القرآن ٢٥٣/٣.

فيها معلقاً على قوله عزّوجلّ (فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ) {آل عمران١٨٤/٣}، وقوله عزّوجلّ جاؤوا انصراف من المخاطبة إلى الغيبة، كأنَّه قال: جاء هؤلاء المذكورين، فيكون النبي صلى الله عليه وآله وسلم داخلاً في الضمير وهو موضع (جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ] {فاطر ٢٥/٣٥} فأقام الأخبار عن الغائب مقام المخاطب [٤٣]، والأمر فيه نكته بلاغية، كما ذكره السيوطي إنَّه العدول عن خطابهم إلى الحكاية، حالهم لغيرهم التعجب من كفرهم وفعلهم إذ لو استمر على خطابهم لفاتت تلك الفائدة[٤٤] ويذكر العبدري أنَّ قوله عزوجل(حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ] [يونس٢٢/١٠] فيها وجه من التفخيم والتعجب، كما أنَّ المخاطب إذا استعظم الأمر رجع إلى الغيبة ليعم الإخبار به جميع الناس[٤٥]، ومن ذلك قول النابغة الذبياني[٤٦]:

يا دار مية بالعلياء فالسندِ

أقوتَ وطال عليها سالف الأبدِ

رابعاً: التقارض بين الفصيح والأفصح

أورد ابن منظور(ت ٧١١هـ) للفصاحة معان عدة وعلى رأسها البيان، فصح الرجل فصاحة، فهو من قوم فصحاء... وكلام فصيح أي بليغ... ووفصح الرجل، وتفصح إذ كان عربي اللسان فأزداد فصاحة... ولقد فصُح فصاحة وهو البيِّن في اللسان والبلاغة[٤٧].

وعرفها اصطلاحاً ابن سنان الخفاجي (ت ٤٣٤هـ) قائلاً : الفصاحة الظهور والبيان، ومنه قوله عزوجل:{ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ }[القصص/٣٤]
وسمي الكلام فصيحاً[٤٨].

وأورد العبدري حادثة سجلها عن عرب برقة يقول: وعربها اليوم- يقصد في عصره – من أفصح عرب رأيناهم، وعرب الحجاز أيضاً فصحاء، ولكنَّ عربَ برقة لم يكثر ورد لناس عليهم فلم يختلط كلامهم بغيره، وهم إلى الآن على عربيتهم، ولم يفسد كلامهم إلا القليل، ولا يخلون من الاعراب إلا ما لا قدر له، بالإضافة إلى ما يعرفون وقد سألت بدوياً لقيته يسقى أبله في الحصوى عن ماء يقال له: أبو شمال هل نمر عليه؟ وذكرته بالواو- يعني واو كلمة أبو- في موضع الخفض على عادة أهل الغرب. فقال لي نعم تطئون أبا شمال، وأثبت النون في الفعل، ونصب المفعول وليس في الغرب عربي ولا

---

[٤٣] ينظر: رحلة العبدري ١٢٣.

[٤٤]ينظر: الاتقان في علوم القرآن ٢٥٥/٣، والتوجيهات والآثار النحوية والصرفية ٢٠/٢.

[٤٥] ينظر: رحلة العبدري١٢٣-١٢٤.

[٤٦] ديوانه ٩.

[٤٧] ينظر لسان العرب ٦٤٣/٢-٦٤٤.

[٤٨] ينظر: سر الفصاحة ١٩٥.

حضري يفعل ذلك[٤٩]. وحاصل ما ذكره العبدري أنَّ عين الماء تلك تسمى(ابو شمال) وهذا أسلوب عربي أيضاً كثر في الحجاز، ويسمى أسلوب الحكاية،وهو أورد بلغتهم وعربي فصيح، ولكنّ الافصح أنْ يُعرب(أبو شمال) أعراب الأسماء الخمسة بالواو رفعاً وبالالف نصباً وبالياء جراً وهذا ما أشار إليه ذلك البدوي– وهو اللغة الأفصح– عندما نصب(أبا شمال)، وأثبت نون المخاطبة في الفعل، وهذا الأسلوب – هو الأعلى في الفصاحة ولكن التقارض وقع بين اسلوب الحكاية –وهو أسلوب نحوي– وبين الأسماء الخمسة من حيث الإعراب.

وإشارة العبدري هذه تدل على أنَّ الفصاحة بقيت على لسانهم – أصل برقة– وذلك لعدم ورود الناس إليهم بكثرة، ولعل هذه الحادثة تشير إلى بعض أسباب تغير طرق الحجاج وقوافلهم من رحلة الى أخرى، بسبب ما تتعرض له تلك القوافل في بعض الطرق. – ويورد حادثة أخرى يقول: ومررنا بأطفال – يقصد قافلتهم– منهم يلعبون ،فقال لنا واحد منهم يا حجاج معكم شيء تبيعونه؟ وأثبت النون وسكن الهاء للوقف، ورأيت إعرابياً منهم قد ألحت عليه أمرأة تسأله من طعام معه. فقال لها والله ما تذوقينه، وأتى بضمير المخاطبة على وجه. وأثبت النون وسكن الهاء[٥٠].

وهنا اشارة إلى هاء السكت التي يقف عليها المتكلم، فليجأ إلى تسكينها، وهو أعلى مراتب الفصاحة وبها جاء القرآن الكريم.

– ويذكر حادثة أخرى: يقول وسمعت شخصاً ينشد في الركب– ركب الحجاج الذي هو فيه– مكتري راحلة ويقول : من يكري زاملة، فسمعه بدوي فقال له أعندك الزاملة؟ فقال نعم. قال:فلا تقل من يكري، وقل من يستكري؟ وما ذكره البدوي هو الأفصح؛لأنَّه يدل على الاستقبال والزمن المضارع وما ذكره صاحب الزاملة فصيح في الاستعمال أيضاً، ولكن ما جاء على لسان البدوي أعلى في الفصاحة.

ويذكر حادثة أخرى: ويقول: وذكر لي بعض أصحابنا من حج معنا أن شخصاً شرب من ماء زمزم. فقال في هذا الماء رائحة الحبَل وحرك الباء على لغة أهل الغرب[٥١] يعني الرشا المستقى به فسمعه أعرابي فقال له: ومن أين جاءت رائحة الحبل إلى الماء؟ فأشار إلى الرشا فقال له: قل: الحَبْل ولا تقل الحَبَل. ونفهم مما ذكرته العبدري هو تصحيح للاستعمال اللغوي على لغة الفصاحة، وما هذا إلا دليل على التواصل اللغوي بين أبناء تلك المدينة، وبين الحجاج وقوافلهم، وبمعنى ما تركته هذه الطرق الإفريقية من أثر في لغة التواصل الذي دعى البدوي، والأعرابي، والطفل أنْ يلتفظوا بكلام الفصحاء على سجيتهم، وليس كذلك بل تعدى الأمر إلى تصويب الكلام عندما يسمعون فيه لحن من وجهة نظرتهم للغة والحقيقة أن ما ذكره الحجاج هو من الفصيح ولكن الأفصح ما ذكره أهل برقة الفصحاء.

ومن مواطن الفصاحة التي سجلها العبدري في تناسب الالفاظ وتناسقها في الكلمة وجريانها على نمط متساوي التراكيب؛ إذ عرض لقوله عزوجل: {وَغَرَابِيبُ سُودٌ} [فاطر/٢٧] في مجمل حواره مع

---

[٤٩] رحلة العبدري ١٣٦ بتصرف.

[٥٠] ينظر: رحلة العبدري ١٣٧ بتصرف.

[٥١] يقصد أهل المغرب العربي.

الشيخ أبي الحسن المالكي الإسكندري، إذ يذكر أنّ الموجب لتقديم الغرابيب هو تناسب الكلم [٥٢]، وفي هذا الصدد يقول ابن سنان الخفاجي: ومن التناسب حمل اللفظ على اللفظ في الترتيب ليكون ما يرجع إلى المقدم مقدماً وإلى المؤخر مؤخراً[٥٣]، وهنا الرابط بينهما اللون وكلاهما أسود تلك الغرابيب والجبال، بدليل ما قبله يقول عزوجل:{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ} [فاطر/٢٧] فإنَّه لما تقدم ذكر البيض والحمر دون أتباع كان الأليق بحسن النسق وترتيب النظام أن يكون السود كذلك، ولكنه لما كان في السود هنا زيادة الوصف كان الأليق بالمعنى أن تتبع بما يقتضي ذلك وهو الغرابيب، فتقابل حظ اللفظ وحظ المعنى فوفي لفظ الغرابيب حظ المعنى في زيادة الوصف، وفي ذكر السواد مفرداً من الإتباع حظ اللفظ إذ جاء مجرداً على صورة البيض والحمر. فاتسقت الألفاظ[٥٤] ولذلك كانت في قمة الفصاحة، والجدد الطرائق والخطوط، والطرائق– تكون في الجبال كالعروق بيض وسود حمر. والغرابيب الشديد السواد الذي يشبه لونه لون الغراب[٥٥]. وجاء اللفظ والمعنى في درجة التمام الدقيق والتناسق اللطيف، الذي جمع بين اللون ومصدره فضلاً عن وجه الشبه بين التابع والمتبوع.

خامساً:– تقارض الألفاظ في الدلالة

استعمل ابن جبير(ت٦١٤هـ) لفظة (أسبوع) للدلالة على سبعة أشواط[٥٦]، والأسبوع كما هو معروف بدلالة على أيام الأسبوع السبعة قال الفراء (ت٢٠٧هـ) :فأول الأيام الأحد... والعرب تسمي أيام العجوز سبعة: أربعة من شباط وثلاثة من آذار، وفي هذا المعنى قال أبو شبل الأعرابي

كُسِع الشتاءُ بسبعة غُبرِ

بالصَّنِّ والصَّنبر والوبرِ

وبآمرٍ وأخيه مُؤتمر

ومُعلِّل وبمطفئ الجمر [٥٧]

والشوط: هو الجريُ مرة غاية والجمع أشواط ، وطاف بالبيت سبعة أشواط من الحجرَ الى الحجر شوط واحد، وفي حديث الطواف: رمل ثلاثة أشواط ، حي جمع شوط والمراد به المرة الواحدة[٥٨]، الواحدة[٥٨]، والعلاقة الدلالية بين الأسبوع والشوط أنَّ كليهما يدل على معنى السبعة، وهذه من باب

---

[٥٢] ينظر رحلة العبري ١٣٧ بتصرف.

[٥٣] ينظر: م.ن ١٢٤.

[٥٤] ينظر: سر الفصاحة ١٩٣.

[٥٥] ينظر: مجمع البيان ١٧٣/٨.

[٥٦] نقلاً عن رحلة الرحلات ٧٦/١.

[٥٧] ينظر: الأيام والليالي والشهور ٣٣ ، ٨٠ ، ولسان العرب ٣٨/٤.

[٥٨] م.ت ٣٨١/٧.

تقارض المعاني والدلالة، وربما هي ظاهرة وجدت في بلاد المغرب صدى لها؛ لأنَّ ابن جبير من تلك البلاد ولعله موروث لغوي أو مصطلح دلالي تعارف عليه.إنَّ أصحاب الرحلات التي مرت عبر طرق إفريقيا قد سجلوا لنا ظواهر في التقارض الدلالي عديدة، وهذا سببه ربما وجود أكثر من قافلة للحجاج تمر بتلك الطرق أو العكس أنَّ الحجاج يحملون على لسانهم ألفاظاً لها معاني ودلالات تختلف عن ألسنة تلك المناطق التي يمرون بها، وهذه الظاهرة إيجابية طبيعية، وفي هذا الصدد يقول العبدري(ت٧٢٠هـ) واصفا مدينة(برقة)[٥٩] التي مرت بها قافلة الحجاج – وممن كان هو من بينهم– هي مدينة قديمة من بناء الروم، وكان اسمها عند أنطابلس، ونقل عنها البكري أنَّها تعني خمس مدن بلغة الروم الإفريقية. ومعنى اطرابلس ثلاث مدن، وبرقة الآن عند الناس اسم أرض لا اسم مدينة، والمغاربة يسمون بها ما ردت عين أقيان من غربي آجدابية الى الاسكندرية[٦٠].

وهنا إشارة فضلاً عن التقارض في الدلالة إلى الاقتراض اللغوي بين اللغة العربية واللغة الرومانية الإغريقية إذا عند الروم تعني معناها ثلاث مدن وعند العرب، كما ذكر ياقوت في معجمه تعني الخمس مدن، وهذا يعني أنَّ التقارض في أمرين الأول الدلالة أو المعنى، والثاني في العدد، وهذه ملاحظة جديرة بالاهتمام.

ويورد لنا العبدري حواراً دار بينه وبين الشيخ القاضي الخطيب أبي محمد بن عبد السيد في تونس، عندما حطت ركاب قافلتهم في تلك البلاد، والحادثة تبين التقارض الدلالي بين الألفاظ واصفاً أهلها في طرفي نقيض. أولئك في الأوج وألاءِ في الحضيض، ولم أر بها ما يروق العيون. وسما عن أن يقوم بالدوران سوى جامعها ومدرستها، فإن لهما من حسن الصورة نصيباً، ومن إتقان الصفة سهماً مصيباً. والحوار عن قوله عزوجل: " وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ، {فاطر ٢٥/٣٥} يقول فسألته– يقصد الشيخ– ما الكتاب المنير الذي أراد هنا؟ فأجاب بأنَّه جنس وهو بمعنى الزبر قبله بإجماع من المفسرين، فقلت له لمَ كرر؟ فقال للتأكيد وجمد على ذلك، ولا يفهم هنا للتأكيد معنى[٦١].

والإشارة هنا الى دلالة:(الزبر)، و(الكتاب المنير) بمعنى الكتاب، إذ كلاهما يدل على معنى الكتاب من وجهة نظر الشيخ القاضي. وأما اعتراض العبدري على الشيخ في معنى التأكيد، وذكر أهل التفسير ومنهم الطبرسي(ت٤٣٨هـ) أنّ الجمع بين الزبر والكتاب ومعناها واحد؛ لأنَّ أصلهما يختلف فهو كتاب يضم حروف بعضها إلى بعض وزبور لما فيه من الزجر عن خلاف الحق، وإنَّما سمي كتاب داود زبوراً لكثرة مافيه من المواعظ والزواجر[٦٢]، وذكر في موضع آخر(وبالزبر) أي وبالكتب وكرر(وبالكتاب المنير) أيْ الواضح البين، وإنَّما كرر ذكر الكتاب وعطفه على الزبر لاختلاف الصفتين[٦٣].

---

[٥٩] بَرْقة: فتح الباء والقاف: اسم صُقْع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وافريقية واسم مدينتها انطابلس وتفسيره: الخمس مدن وهي كثيرة الخيرات واسعة، مثل الجوز واللوز والسفرجل. ينظر: معجم البلدان١/٣٨٨-٣٨٩.

[٦٠] ينظر: رحلة العبدري /١٣٦.

[٦١] ينظر: م.ن١٣٧.

[٦٢] ينظر مجمع البيان ٣٥١/٢.

[٦٣] ينظر: م.ن ١٧٢/٨.

ولقد أشار العبدري إلى نكتة نحوية في ذلك، وهي أن تكرار حرف العطف إشعار بقوة الفصل بين الأول والثاني وعدم التجوز في عطف الشيء على نفسه[٦٤].

– ومن تقارض الألفاظ في الدلالة ما أورده العبدري في رحلته أيضاً في حديثه عن عرب (برقة) وتمتعهم بالفطنة ومعرفتهم باللغة يقول: وسألت منهم شخصاً عن الطريق، فقال لي إذا أظهرتهم من الغابة فخذوا وأصوب كذا يعني إذا خرجتم منها؛ لأنَّ الإظهار بمعنى الخروج عندهم.

وكذلك أورد العبدري كلاماً مفاده أنَّ أهل برقة مازالوا يتكلموا على سجيتهم؛ فمن ذلك أنَّ شخصاً منهم وقف عليَّ بموضع نزولي من محلة الركب، وكانت الترعة بعيدة. فقال لي: يا سيدي تدعني أظهر يعني أخرج [٦٥]. وهذه كلّها ألفاظ تدل على التقارض في الدلالة والمعنى. وأظهر بمعنى أخرج، وتعني البروز من جانب الى آخر، واستطرد العبدري بذكر: إنَّ هذه الألفاظ وأمثالها كانت تشغل مصنفي كتب ألفاظ الغريب في اللغة، وأهل هذه المدينة كانوا على فطنة منها. ويذكر أنَّه سأل شخصاً آخر عن ماء هل هو معين؟ فقال لي ماءً غدق، وسمعت آخر، وقد أزدحم الناس في مضيق، وهو يقول تنحو عن الدرب. وما يتكلموا به من الغريب أكثر من أن يحصى[٦٦].

وهذه الألفاظ التي ذكرها العبدري فيها دلالة واضحة على تقارض الألفاظ للمعاني فيما بينها وربما كان يجهلها ركب الحجاج في تلك القافلة التي مرت بمدينة(برق) ، ولكنَّ فطانة العبدري اللغوية جعلته يسجل لنا تلك الملاحظات أو الحوارات التي دارت بينه وبين أهل تلك المدينة، تاركاً الأثر للتواصل اللغوي الذي حدد مفهوم تلك المعاني المستعملة والمتداولة، وفقاً للاستعمال اللغوي، وهذا كلَّه جاء نتيجة لأثر طرق الحجاج الإفريقية خاصة، والأخرى عامة عن طريق الاحتكاك اللغوي بين أهل الأماكن التي تمر بها قوافل الحجاج التي تريد أداء فريضة الحج، وما يسجله صاحب الرحلة من انطباعات عليها.

سادساً: التقارض بمعاني الامثال: ويمثل التواصل اللغوي عبر تقارض معاني الأمثال ظاهرة إيجابية في طرق الحج الإفريقية وقوافل الحجاج التي كانت تمر بها. إذ غالباً ما يكون المثل معروفاً عند أهل تلك المدن، ومتداولاً بينهم لشيوعية في رصد ظاهرة مؤلوفة عندهم. ولربما يضرب من أهل تلك المدن التي يمرون بها، ولم يكن بهم علم به – أي الحجاج– فيكون تواصلاً لغوياً جديداً؛ لأنها تغدو قطباً فاعلاً في حياة الناس، فالأمثال في حياة الشعوب لها بعدان بُعد سكوني، وبُعد متحرك، وكلاهما مرتبط بالآخر[٦٧]. وبمعنى أنَّ الظاهرة يمكن أنْ تنتقل بين ألسنة الناس، لما تحمله من معانٍ ترتبط أذهانهم بها، وفي هذا المعنى يقول ابن المقفع(ت١٤٢هـ) " إذا جُعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق وآنق للسمع وأوسع لشعوب الحديث" [٦٨]، ولم يخرج السيوطي(ت٩١١هـ) عن هذا المعنى، إذ يقول إنَّه جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلة بذاتها فتتسم بالقبول، وتشتهر بالتداول، فتنقل ما وردت فيه إلى

---

[٦٤] ينظر: رحلة العبدري١٣٧.

[٦٥] ينظر: م.ن ١٣٨ .

[٦٦] ينظر: م. ن ١٣٧–١٣٨.

[٦٧] ينظر: الأمثال العربية ٧.

[٦٨] الادب الصغير ٣٨٣.

كلِّ ما يصح قصده بها من تغيير يلحقها في لفظها، وعما يوجه الظاهر إلى أتباعه من المعاني، فلذلك تضرب، وإنْ جهلت أسبابها[٦٩]. ويمكن أن تكون كالرموز والإشارات التي يلوح بها عن المعاني تلويحاً لها مقدمات وأسباب وتختص ألفاظها بالاختصار والإيجاز[٧٠].

– وفي هذا الصدد قد أورد لنا ابن جبير(ت ٦١٤هـ) في رحلته إلى الحج عبر طرق إفريقيا مجموعة من الملاحظات العامة والخاصة، ومنها الأمثال التي كانت تعبر تارة عن قساوة الرحلة ومشقتها عبر تلك الطرق، وأخرى العكس من ذلك.

ويذكر وصفاً لأهل عيذاب في الحجاج أحكام الطواغيت، وذلك أنهم يشحنون بهم الجلابِ حتى يجلس، وتعود بهم كأنَّها أقفاص الدجاج المملوءة، يحمل أهلها على ذلك الحرصُ والرغبة في الكراء حتى يستوفي صاحب الجلبة منهم ثمنها في طريق واحدة، ولا يبالي بما يصنع البحر بها يقولون:(علينا بالألواح وعلى الحجاج بالأرواح)[٧١]، والجلبة هي نوع من العبارة ملفقة الأشياء لا يستعمل فيها مسمار وشراعها منسوجة من خوص شجر المُقل، التي يعبر عليها الحجاج من الساحل من عيذاب إلى ساحل جدة. والمثل شاع عند أهل عيذاب، إذ همهم مايجنونه من الثمن، ولامبالاة بإراوح الحجاج، فشاع هذا المثل بينهم حتى عرفوه الحجاج، ولذلك كانت هذه المدينة مما يخشاها الحجاج في طريقهم، ولعلها كانت أبرز الأسباب إلى تغير الطرق. وهذا مفاد قول ابن جبير؛والأولى بمن يمكنه ذلك أن لايراها، وأن يكون طريقه على الشام إلى العراق ويصل مع أمير الحاج البغدادي[٧٢]. وهذا المثل قد تقارض معناه أهل عيذاب الأموال بدل الارواح التي تذهب أثر حوادث البحر.

– ومما أورده ابن جبير من الأمثال (كأنه مُنْشرَ من كفن) وذكره للدلالة على الناجين من تلقيهم الرياح في مراسٍ بصحارى تبعد عن جدة، مما يلي الجنوب فينزل إليهم البجاة– وهم نوع ممن السودان ساكنون بالجبال فيكرون عنهم الجمال، ويسلكون بهم غير طريق الماء، ومن الحجاج من يتعسف تلك المجهلة على قدميه فيضل ويهلك عطشاً، والذي يسلم منهم يصل إلى عيذاب ويضرب المثل به (كأنه مُنْشرَ من كفن). ويذكر ابن جبير أنَّهم شاهدوا منهم مُدة اقامتهم في عيذاب أقواماً قد وصلوا على هذه الصفة في مناظرهم المستحيلة وهيأتهم المتغيرة آية للمتوسمين[٧٣]، وهذا المثل يضرب لهلاك الحجاج، وهو تقارض لمعنى الهلاك التي يصيب الإنسان في هذه المراسي.

– ويورد لنا مثلاً آخر العبدري في رحلته:(أقفر من جوف حمار وأهلها سواسية كأسنان الحمار)، يصف به مدينة طرابلس وأهلها: قائلاً: للجهل مأتم وما للعلم بها غرسٍ أقفرت ظاهراً وباطناً وذمها الخبر بها سائراً وقاطناً تلمع لقصائدها لمعان البرق الخلب وتريه ظاهراً مشرقاً، وإنَّما الباطن قد قطب اكتنفها البحر والقفر واستولى عليها عربان البر ونصارى البحر النفاق والكفر وتفرقت عنها الفضائل تفرق الحجيج يوم

---

[٦٩]ينظر: المزهر الى ٤٨٦ بتصرف.

[٧٠] ينظر: صبح الاعشى٢٩٥/١.

[٧١] ينظر: رحلة ابن جبير ٤٨، والمختار من الرحلات٣٩–٤٠.

[٧٢] ينظر: م.ن٤٠.

[٧٣] ينظر: رحلة ابن جبير ٤٧، والمختار من الرحلات٣٩.

النفر لا ترى بها شجراً ولا ثمراً ولا تخوض في أرجائها خوضاً ولا نهراً . ولا تجتلي روضا يحوي نوراً ولا زهراً بل هي(أقفر من جوف حمار وأهلها سواسية كأسنان الحمار) [٧٤].

وهذا المثل فيه تقارض بالمعاني، إذ يضرب لمعنى الشحة والقفر، وقد وظفه العبدري في ذم أهل طرابلس، وهو تقارض لغوي لحمل المعاني على معان آخر.

وأقول إنَّ هذا المحور فيه الكثير، وقد اقتصرت الأمثلة على كثرتها؛ لأنَّ المقام لا يسع لذكرها وإنَّما تحتاج إلى دراسات منفصلة، والله من وراء القصد.

المحور الثالث: -الانعكاسات النفسية لمعاني التواصل اللغوي:

لعل ما يميز اللغة استعمالاتها الواسعة في شتى مجالات الحياة، وهذا دليل على أنَّ التواصل اللغوي هو حالة فكرية وجدانية تكمن في ذهن المنشئ، ليعبر بها عن حاجاته، وليس بالضرورة أن تكون تلك الحاجات مادية أو غير ذلك؛ لأنَّ الذي يميزها عن غيرها هو حاجة المتكلم لها، ومن بينها استعمال اللغة في المراسيم الاجتماعية والدينية والقانونية والتعاون والسيطرة على البيئة والإقناع وإعطاء المعلومات وغير ذلك[٧٥]. والحج جزء من الطقوس الدينية التي يؤديها الإنسان، ويستعمل اللغة ليعبر عن تواصله مع الله عز وجل في التلبية والمناسك والدعاء والصلاة، والمراسيم الدينية الأخرى، وتتجلى أكثر عندما تكون تلك الطقوس بلغة خاصة غير اللغة القومية للمتعبدين، إذ لا يكون المعنى الحرفي هو المعنى المهم وإنَّما التواصل اللغوي بكلِّ إشكاله على الرغم من أنَّه بعض الشعائر والطقوس لا تصح إلا باللغة العربية الفصحى[٧٦]. لذا كان التواصل اللغوي حقيقة نفسانية ذات وجهين، هما المعنى المجرد، والصورة السمعية والصلة بينهما وثيقة، فكلٌّ منهما يوصي بالآخر، ويستدعي عن أحدهما وجود الآخر، ولذلك يكون الرابط بينهما إيجابياً[٧٧].

ومن هنا كانت رحلات الحجاج عبر طرقها بشكل عام، وإفريقيا بشكل خاص- تمثل تعبيراً نفسانياً للحجاج خاصه والآخرين عامة، فيعبرون عما يدور في وجدانهم أثر تأثرهم بتلك الطرق عن انطباعات تتركها تلك الرحلة من حيث الزمان والمكان في نفوسهم فيأخذهم التعبير عن المعاني العميقة بأشكال مختلفة ولا سيما في الغالب الشعر؛ لأنَّه أقرب من النثر إلى نفوسهم، لكونه يحفظ، ويكون له تداول بين الناس، وأما النثر فيكون محفوفاً بالنسيان أكثر من الشعر.

وقد جاء وصف كثير من تلك الانطباعات النفسية في كتب الرحلات لا سيما الحالة الدينية للمناطق التي يمرون بها لا سيما أهل الحجاز حتى اشتهرت قصائد في بلاد المغرب خاصة تعرف بالحجازيات، وبعضها للرحالة أنفسهم كابن جبير وابن خلدون وابن بطوطة وغيرهم، فضلاً عن الوصف الدقيق للجانب الاجتماعي على سبيل التمثيل عاداتهم الإيجابية والسلبية وطبيعتهم مع ملاحظة إنَ كثيراً من

---

[٧٤] ينظر: رحلة العبدري١٩٩ بتصرف.

[٧٥] ينظر: اللغة وعلم النفس ٢١٩-٢٢٥.

[٧٦] ينظر: م.ن ٢٢٤.

[٧٧] ينظر علم اللغة الاجتماعي١٤٥.

الحجاج يبثون همومهم بعضهم الى بعض، ويتبادلون الرأي في أحوال أوطانهم، ويتعارضون الحلول للمشكلات ببلدانهم[٧٨].

يقول ابن جبير واصفاً مدينة عيذاب: محتسبة عند الله عزوجل لشظف العيش، وسوء الحال، واختلال الصحة لعدم الأغذية الموافقة وحسبك من بلد كل شيء فيه مجلوب حتى الماء، والعطش أشهى الى النفس منه، فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام وماء يشعل المعدة عن اشتهاء الطعام، فما ظلم مَنْ غنى عن هذه البلدة، بقوله : (ماءٌ زعاقٌ وجوٌّ كلّه لهب)، فالحلول بها من أعظم المكاره التي حف بها السبيل الى البيت العتيق، زاده الله تشريفاً وتكريماً، وأعظم أجور الحجاج على ما يكابدونه، ولا سيما تلك البلدة المعلونة[٧٩].

لقد ألمح ابن جبير إلى تلك المدينة بطريقة النثر الذي أعتقد أنَّه وفق في وصفه، وعبر عنها تعبيراً يدل على الانطباع السلبي الذي خلفته، وتركته تلك البيئة التي هواؤها حار، فضلاً عن سرعته، ومن شدته يذيب الأجسام، إما الماء فهو مر(زعاقٌ)، ومن كثرة مرورته يسد شهية الإنسان عن الأكل، وإما المكاره في هذه المدينة فهي كثيرة وشديدة على الحجاج حتى من هول الحر، فضلاً عن وصفه لها بالمعلونة وتنشد بقوله أعلاه، والرياح كلُّها لهب كناية عن شدة الحر.

ويسترسل القول إنَّ من قبائحها ما لهج لنا بذكره إنّ النبي سليمان عليه السلام أتخذها سجناً للعفارته أراح الله الحجاج منها بعمارة السبيل القاصدة الى بيته الحرام[٨٠].

إذن نستنتج من كلام ابن جبير إنَّ انعكاسه عن هذه المدينة كان سلبياً، وعبر عنه بالمكان والزمان، فالمكان عيذاب، والزمان هو أثناء مرور قافلة الحج ،بها متجهين لأداء فريضة الحج، في يوم الاثنين الخامس والعشرين لربيع الأول، وكانت مدة الإقامة فيها ثلاثة وعشرين يوماً، فضلاً عن ذلك، فالنص يوحي لنا التأثر الكبير الذي وقع في نفوس الحجاج في طرق عيذاب، وتجسد هذا الانعكاس عبر التواصل اللغوي عن طريق رصف المعاني المسجلة للآثار السلبية التي طُبعت فيهم تلك هي انطباعات وانعكاسات نفسية صدّأت في نفوس الحجاج.

ويورد لنا ابن جبير واصفاً انعكاساته النفسية عن جدة بأنها قرية على ساحل البحر، وأكثر بيوتها أخصاص، وفيها فنادق مبنية بالحجارة والطين، وفي أعلاها بيوت من الأخصاص كالغرف ولها سطوح يستراح فيها بالليل من أذى الحر[٨١].

إنّ هذا الوصف قد ترك انعكاساً إيجابياً في النفوس بعد الشعور بالراحة والطمأنينة وخصوصاً بعد المخاطر التي حلت بالقافلة عند عبورهم البحر كما يسميه ابن جبير(بحر فرعون) كناية عن الهلاك والمخاطر التي حلت بفرعون وقومه، وجدة يتلقى فيها الحجاج الذين يسلكون طرق إفريقيا، ثم يأتي الاطمئنان ليس للمدينة وحسب وإنَّما أنعكاساً إيجابياً من السكان أيضاً. إذ يصفهم: أشراف علويون:

---

[٧٨] ينظر : المختار من الرحلات ٩٠.

[٧٩] ينظر: رحلة ابن جبير٤٩، والمختار من الرحلات ٤١.

[٨٠]ينظر: رحلة ابن جبير٤٩-٥٠ بتصرف.

[٨١] ينظر: رحلة ابن جبير٤٩-٥٠ بتصرف.

حسنيون وحسينيون وجعفريون رضي الله عن سلفهم الكريم، وهم من شظف العيش بحال يتصدع له الجماد إشفاقاً، ويستخدمون أنفسهم في كلِّ مهنة من المهن من إكراء جمال إن كانت لهم أو بيع لبن أو ماء إلى غير ذلك من تمر يلتقطونه أو حطب يتحطبونه وسبحان الله المقدر لما يشاء، ولا شك أنَّهم أهل البيت ارتضى الله لهم الآخرة ولم يرتضِ لهم الدنيا، جعلنا الله ممن يدين بحب أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً[٨٢]. نلحظ الانطباع الايجابي لابن جبير حول جدة وأهلها الذي تركته تلك المدينة وسكانها حتى ضمن ذلك الانطباع وصف أهلها بالشرف والنسب والعفة، فضلاً عن التضمين القرآني بقوله عزوجل:(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب٣٣/٣٣]، ويعبر ابن جبير عن انعكاس إيجابي آخر في نفسه ونفوس الآخرين، وهو ما وجده من نعمة من الثمرات التي تتميز بالطعم واللذة، ويقول: وأغرب ما ألقيناه فاستمتعنا بأكله وأجريت الحديث باستطابته ولاسيما لكوننا لم نعهده، الرُّطب وهو عندهم بمنزلة التين الأخضر في شجرة يُجنى ويؤكل، وهو في نهاية من الطيب واللذاذة، لايسأم التفكه به، وإبَّانه عندهم عظيم يخرج الناس إليه كخروجهم إلى الضيعة أو كخروج أهل المغرب لقرأهم ايام نضج التين والعنب، .. ومن صُنع الله الجميل لنا وفضله الحميم علينا أنا وصلنا إلى هذه البلدة المكرمة فألفينا كلَّ من بها من الحجاج المجاورين ممن قدم عهده فيها وطال مقامه يتحدث عن جهة العجب بأمنها من الحرابة[٨٣].

إذن للتمتع بطعم الرطب وأكله عند الحجاج طعم خاص؛ لأنَّه كما يقول ابن جبير مألوف في بلادهم الذين أتوا منها، مما دعاه أن يتحدث عنه بإسهاب مبيناً طعمه ولذته وطرائق جنيه، وكذلك خزنه، وهذا لم يكن من بنات أفكاره وإنَّما عن طريق التواصل اللغوي مع الناس، ويؤكد قوله ذلك: لقائهم بالحجاج الذين سبقوهم بالوصول أو ممن أقام في موسم سابق، والحج كذلك إلى العلاقة بين ميزة هذا التمر في المشرق ومقارنته بين العنب والتين في بلاد المغرب، إذ هما صنوان لثمر مميز أحداهما في الشرق والآخر في الغرب. وكلُّ هذا الحديث هو انطباع إيجابي عن تلك الطرق التي كانت ملتقى الحجاج والشعور بالطمأنينة خير دليل على الانعكاس النفسي الإيجابي في نفوس الحجاج، وكأنَّ المسألة يراد منهم التهييّء الى مرحلة أداء الفريضة بأجواء نفسانية مطمئنة.

لقد أخذت الرحلات الحجازية سمة مميزة في وصف المراحل التي يمر بها الحجاج من قرية إلى أخرى، أو من مدينة الى أخرى أو يجتمع بإخوانه المسلمين هناك من سائر جهات العالم الإسلامي إلى أن يشهد موقف عرفة[٨٤]. وهذا الوصف يتجلى عبر التواصل اللغوي، وبالمحصلة إنَّ الوصف يكون نتيجة لأثر نفسي يعكسه ذلك المكان، سواء أكان إيجابياً أم سلبياً، إذ يكون الحديث في المحطات والطرق التي مر بها أو اعترضته في طريقه من مشاهدات ومعرفة بالآثار والمشاهد التي شاهدها.

---

[٨٢] ينظر: رحلة ابن جبير٤٩-٥٠ بتصرف، والمختار من رحلة الرحلات ٤٦.

[٨٣] ينظر: رحلة ابن جبير٥٤بتصرف. والمختار من رحلة الرحلات٦٥-٦٦.

[٨٤] م.ن ١١-٥١.

وتعد رحلة ابن جبير مصدراً مهماً في هذا المجال، إذ أصبح دليلاً للحجاج المغاربة –أي القادمون من بلاد المغرب العربي– في الطريق التي يسلكونها للوصول الى مكة المكرمة ودليلاً حول ما يفعلون وما يقومون به.

وهكذا من الحجاج من يسلك طريق البر مستعيناً بالرواحل والمطايا، ومنهم من يسلك طريق البحر بواسطة السفن والمراكب غير مكترث بالمخاطر والكوارث، ومنهم من أصبح يفضل الرجوع عن طريق البر التي لا تخلو بدورها من المغامرات والمعاكسات من قبل قاطعي الطرق [٨٥]. وكلُّ هذه الطرق كانت ذات أثر في التواصل اللغوي من حيث الانطباعات الاجتماعية واللغوية والاقتصادية وغيرها، فضلاً عن النفسية.

– ويورد لنا ابن رشيد السبتي(ت٧٢١هـ) مشاعره وانطباعته عن مدينة طيبة، مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، عبر قصيدة لأبي عبد الرحمن الشجامي الفقيه الصالح والمحدث العارف، كان يردّها عن شيخه عفيف الدين أبو محمد يقول فيها:

لأصلينّ على النبي محمد أبدا كما يرضى وآل محمد

خيرُ البرايا أجمعين محمد والآل خير الآل آل محمد

خير الصحابة في الورى أصحابه وأعزُّ بيت أهل بيت محمد

خير النساء بناته، ونساؤه حقٌّ الجميع مؤكد بمحمد

خير البرايا أمة من بعدهم مرصومة قد آمنت بمحمد

والقصيدة تجاوزت العشرين بيتاً ، وفيها شعور بالسعادة والتمسك بنهج النبي وآله وأصحابه، إذ الانسجام النصي واضح في الأبيات، وهو انطباع تركه المؤثر في المتأثر، فضلاً عن تكرار لفظة(محمد، وخير) وهما ركنا القصيدة الذي ذكره، وهذا بسبب انعكاس نفسي، تركه قبر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في نفوس محبيه وزائريه، إذ استشعر بالطمأنينة والسرور،ولعلنا نجد ذلك أيضاً عند ابن رشيد السبتي، إذ استوطنت نفسه بهذا المكان الذي يلتقي فيه الحجاج من مختلف بقاع العالم الإسلامي لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا تجلى في انطباع آخر، إذ يظهر في الأبيات الآتية:

أكثرت تكراري لذكر محمد حباً له فخراً بحبَّ محمد

حبَّ هو الإيمان إيثاراً على حبّ الورى والنفس حب محمد

---

[٨٥] ينظر: المختار من رحلة الرحلات ٥٣/١.

جعل الإله صلاته وسلامه حقاً توجه للنبي محمد

وبذاك قد أمر الورى ليثيبهم عشراً بواحدة إلاه محمد

لايقبل الله الصلاة من أمرئ دون الصلاة على النبي محمد

حُجب الدعاء عن السماء إذ علا دون الصلاة على النبي محمد

وهكذا ينقل لنا ابن رشد السبتي أحاسيسه، وهو بجوار قبر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بعد الرحلة من بلاد المغرب عبر طرق إفريقيا الحفيفة بالمخاطر، وهذا الأمر هو عين التواصل اللغوي تركه انطباع ابن رشيد عن ذلك الملتقى العظيم لحجاج بيت الله الحرام.

فلا صلاة من دون الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولا دعاء مقبول من دون الصلاة عليه، وهذا متفق عليه عند جميع المذاهب الإسلامية، وهنا تضمين للنص القرآني قوله عزوجل{ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا] [الأحزاب ٥٦/٣٣].

ودليل آخر للتواصل اللغوي ذكره ابن رشيد يقول: ومما قرأته على شيخنا في الموضع المحدد من المحل الشريف السامي المنيف، وحضر السماع عدد لا أحصيهم. وهو تواصل بين المتكلم أو المنشئ والمتلقي والذين حضروا من مختلف الحجاج في ذلك المكان والمكان يحمل دلالة مزدوجة تاريخية دينية[٨٦]؛ لأنَّ هذه المواضع لها خلود زمني في نفس المسلم ومشاعره وعواطفه فضلاً عن المكان؛ لأنَّه مركز استقطاب المسلمين عن أنحاء العالم الإسلامي[٨٧].

إنَّ التحول المكاني في الحج له أثر كبير في نفوس الحجاج؛ لأنَّه ثمة علاقات اجتماعية وأخرى دينية تحدد البقاء، أو الرحيل لأداء مناسك الحج، وهذا التحول يفقد الحجاج لعلاقات المودة، ولو بشكل مؤقت والصفاء بينه وبين أبناء مدينته أو أهله فيترك أثراً كبيراً في نفوسهم، وبهذا الصدد يذكر لنا العياشي(ت ١٠٥١هـ) محاورة رائعة تبين فعالية التواصل اللغوي عند مفترق طرق الحج، وهي عبارة عن محاورة يقول: وربما أذكرني الوهم بعد المسير محاورة الأهل، قبل ذلك بيسير وقولهم – يعني الأهل– لقد حمّلت نفسك من البيِّن ما لا تطيق، وألزمتنا من فراقك ساعة نطاق الصبر يضيف. يقول العياشي[٨٨] فأنشدت في ذلك الفراق الصعب واصفاً الحال والقلب.

ولم أنسها يقظانة الهم في الحشا

---

[٨٦] ينظر: المكان في شعر الشريف الرضي٢٥.

[٨٧] ينظر: المكان في الشعر الأندلسي ١٩٩.

[٨٨] ينظر: الرحلة العياشية ٩٨/١ بتصرف.

مُبلبلةٌ الأشجان وسناتةَ الطرفِ

تقول وقد وجد الرحيل أهكذا

تحملني ثقلَ الفراق على ضعف

أتترك أفراخاً كزغب القطا وما

رحمت بنيك إذ سلوت عن الإلْف

فقلت لها :كفي الملامَ وأعرضتْ

كخِسفْ النقا تستعرض الدمع

فودعتها والقلبُ منطبق على

أساهُ ودمعي لا يمل من الوكفِ

عليك سلامٌ لازيادة بينا

مع البعد إلا أنَّ أزورَ مع الطيف

إن هذه الحوارية كشفت عن ثنائية مميزة بالحنين والحب للأهل والعيال وبين عشقه لزيارة البيت الحرام، وقبر الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو بين عتب الأهل والخوف عليه من مخاطر الرحلة، وبين ما يسببه من فراغ في ترك الأولاد والأهل من ألم، فضلاً عن معاناة السفر، ولكنه يزول بمجرد رؤيته لمدينة طيبة مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والبيت الحرام ، والملاحظ أيضاً أنَّه يذكر أثر الوهم في طريق الحج الذي أثار هذه الحوارية، وغالباً ما تكون مفترضة من قبل الشاعر بصورة

خاصة، والآخرين بصورة عامة. فضلاً عن أن التحول غالباً ما تحدده ملامحه وطبيعة تكمن في حركة الشخص ونموه ووعيه[٨٩].

والعياشي يقلل من أهمية الألم في ذلك بالرجوع إلى الله عزوجل والاستغناء به عمن سواه، ويذكر أنَّه أكثر من ذكر حسبنا الله ونعم الوكيل مستدلاً بقوله عزوجل(فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ] [آل عمران١٧٤/٣] بعد قوله(وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ] [آل عمران/١٧٣].

ويورد لنا أيضا قصة تبين الانعكاسات النفسية في طريق الحج الإفريقية، وهي قصة حدثت لهم في طريق الحج عندما نزلوا بقرى الدغامنة–قرب بلاد توات– قرب زاوية سيدي عبد الله بن طمطم، يقول زار أمير الركب سيدي بن طمطم، وأنَّه رجل من أهل الخير والدين، يطعم الواردين عليه في بلاد، كاد الطعام أن يكون فيه دواء،وهذا كناية عن القحط في تلك البلاد. فلما خلصوا للرحيل عنه خرج لوداعهم وأقرأ لهم الفاتحة، وبالغ في رفع يديه، فلما فرغ منها قال له رجل آخر من الحجاج: يا سيدي اقرأ لي فاتحة، فانتهره وقال له: أما عملت أنَّ فاتحة الكتاب لما قرئت له، وإنَّها السبع المثاني والقرآن العظيم فهلا نويت حاجتك عند شروعنا في قراءة الفاتحة، فإن فاتحة واحدة تكفي أهل السماوات والأرض[٩٠].

أن هذه القصة تبين لنا كيفية التواصل اللغوي من قبل المتكلم ابن طمطم مع المتلقي، وهم الحجاج الذين كانوا بضيافته. وأن معايير الحوار أو الدعاء يستلزم الانتباه للأمر، فضلاً عن ذلك فإنَّه يتسم بكونه نشاطاً مشتركاً يتمكن به الناس من تأسيس علاقاتهم، فضلاً عن المحافظة عليها، وعليه يكون الاشتراك في التواصل اشتراك في الزمان والمكان وكذلك المعتقدات مع مراعاة اللغة الطبيعية بين تلك العلاقات، ولعل السائل لم يلحظ ذلك، إذ سأله عن شخصه وتناسي الآخرين، وهذا الأمر جعل الشيخ ابن طمطم ينهره؛ لأنَّ التواصل اللغوي ليس فعلاً عشوائياً، بل شيء مخطط له، وكذلك فعل ابن طمطم عندما خرج لوداع الحجاج وقرأ لهم سورة الفاتحة[٩١].

إنَّ هذه القصة التي ذكرها العياشي تبين الانطباع الإيجابي الذي دار في نفوس الحجاج بعد أن أطعمهم، إذ كان الطعام في تلك المدينة كالدواء، وهو كناية عن القحط وحاجة الناس الشديدة له، ولكن إيثار الشيخ في إطعام حجاج بيت الله الحرام هو الذي دفعه. وكذلك الدعاء الذي دعا به لهم، وهو انطباع إيجابي أيضاً إذ جعل الفرحة في نفوسهم، وكذلك فيها انطباع سلبي نفسي، وهو انفراد ذلك الحاج بطلب الدعاء لنفسه دون الآخرين.

ويذكر لنا العياشي[٩٢] قصة حدثت لهم في رحلتهم للحج تبيّن مدى الانعكاس النفسي عن تلك المدينة التي مروا بها وهي قرية يقال لها(والا)، ويبدو أن مناخها كان صعباً على قافلة الحجاج، إذ يصفها ذات رمال كثيرة يحار النظر من كثرتها وصفونها وشديدة القساوة حتى أن الأبل لقيت أضعاف مالقى الحجاج في ذلك الطريق، واستحضرت حُسن مبالغة القائل((اللهم صلي على سيدنا محمد عدد

---

[٨٩] ينظر: حواريات المكان٣٩.

[٩٠] رحلة العياشي ٧٩/١ –٨٠ بتصرف.

[٩١] ينظر إستراتيجية التواصل اللغوي١٠.

[٩٢] رحلة العياشي ٧٩/١ –٨٠ بتصرف.

الرمال))، ثم يأخذ بوصف قساوة هذه القرية التي يرى أنه لا يصح تسميتها قرية –حسب رأيه–؛ لكثرة الرمال فيها وقلة الحياة... حتى ينتهي لنا من سرد الوصف القاسي لتلك القرية وبعد رحيلهم منها إلى القليعية... فوجدنا فيها الكلأ للأبل فخمدناها... ثم بتنا تلك الليلة أيضاً في أرض كالتي قبلها نراها في الجوع والعطش أعظم منها لا مثلها. وهذا الأمر أنطباعاً نفسياً سلبياً في مسيرة قافلتهم فأنشأ ابياتاً قال فيها:

لئن طال الحِمادُ لقد حَمدنا بفضل الله عِاقبة الحمادِ

سنبلغ سالمين وفضلُ ربي علينا كلُّ يومٍ في أزدیادِ

سيحسنُ في التناهي دون ريب كما قد كان أحسن في المباد

وكما أن الأمر يبدو ظاهره سلباً، لكنه يخرج لنا بنهاية إيجابية جسدها العياشي بمؤاساة النفس بالحمد والشكر لله؛ لأنَّ العاقبة للمتقين بفضل الله والتوكل عليه.
ومن الانعكاسات النفسية التي تركتها طرق الحج في نفوس الحجاج، ما ذكره لنا ابن رشيد السبتي من قصة رفع سندها إلى ابن العربي، قال: سمعت ابن الصوفي، يقول خرجت مع أبي الفضل للجوهري مشيعين لقافلة الحجاج ومودعين لها، قال فالتفت بعد زحم الرجال إلى فتى حسن الوجه شاحب اللون، وهو يتبع الرواحل راحلة بعد راحلة، ويتردد حتى مثنى الحجاج عن آخرهم، وكان يقول أثناء تردده شعراً.
أحجاجُ بيت الله في أيِّ هودج وفي أيَّ خدرٍ عن خدروكم قلبي

أأبقى رهين الشوق في أرض غربة وحاديكم يحدو بقلبي مع الركب

فو اسفأ لم أقض منكم لبانتي ولم أتمتع بالجوار وبالقرب

وفرق بيني الرحيل وبينكم فها أنذا أقضي على إثركم نحبي
يقولون هذا آخر العهد فيكم فقلت وهذا آخر العهد من قلبي

فلما لم يبق من الحاج أثر، وانقطع رجاؤه جعل يخطر هائماً، وأخذ يقول:
خلِّ دمع العين ينهملُ بأن من تهواه وأرتحلوا

بأيِّ دمعٍ صاره كلفٌ فهو يوم البين مبتذلُ

قال ثم سقط إلى الأرض ، فبادرنا إليه فوجدناه رحمة الله عليه[٩٣]. وهذه الحادثة مع ما فيها من شوق وحنين وألم فهي دلالة على الانعكاسات النفسية التي استطاع المنشئ أنْ يعبر عن نفسه من أحاسيس ومشاعر وصلت به إلى حد التعلق بركب الحجاج، وما عبر عنه من مشاعر راقية وصادقة وأحاسيس حقيقية عن طريق رصف المعاني المؤلمة لرحيل القافلة؛ لأنَّ راحلة الحجاج قد ملئت قلبه وعقله لأمرين أحب الحجاز، وما فيها والشوق لمكة وطيبة، والثاني حب من ركب تلك الرواحل التي اتجهت إلى الحج، وكلاهما مر.

ويأخذ التواصل اللغوي جانباً مميزاً على لسان الشعر، فهو لا يقف عند حد معين، وإنَّما يتعدى إلى إبعاد روحية تستنشق الصعداء كلما قربت من مكان.

ويرجع إلينا العبدري[٩٤] ليصف لنا مأساة إحدى تلك الطرق التي مرت بها قافلتهم يقول: ثم جئنا البرية الردية: وذبل معدن كل أذية سباخ تدهش النواظر. وتذهل بفرط ما تهول الخواطر. ومياه تحل قوى الأجسام وتثير كامن الاسقام، وتنفذ كما تنفذ السهام. ولسان حالها يقول: أقويت واقفرت فإنْ عدلت عدلت وأنْ كنت ماجرت فيه فقد جرت:

لي اسم ولكن لا مسمى وراءه

فلا تغترر إنْ كنت ذا فطنة باسمِ

فكم طار في الآفاق صيت مشهر

لمن ماله في صالح الفصل من قسم

نلحظ أنه يستعمل أسلوب الذم بما يشبه المدح، وهو أسلوب عرفه الشعراء في هجاء من تقشعر منه الأبدان، ويكمل قائلاً: وهذا الاسم يطلق على عدة قصور بينها مسافة أولها يسمى الشبيكة وهي أعمرها... وآخرها يسمى المدية، وأكثر ما يطلق عليها اسم سرت، وحكمها حكم القفار قل ما يعمرها إلا الأعراب ومن ليس به عبره:

يا سرتُ لا سرّتَ بك الأنفسِ

لسانُ مدحي فيكم أخرسُ

ألبستهم القبح فلا منظر

يروق منكم لا ولا ملبس

---

[٩٣] ينظر: رحلة ابن رشيد السبتي ٥٠٩/١ – ٥١٠ بتصرف.

[٩٤] ينظر رحلة العبدري ١٣١-١٣٣ بتصرف.

بخستم في كلَّ أكرومةٍ

وفي فعالِ القبحِ لم تبخس

وفي هذه القصة يسجل لنا مدى الانعكاس السلبي عن مدينة سرت، وبما ضاق بالنفوس، مما رأتهَ القافلة من بؤس وحرج في مناخ تلك المدينة على الرغم من الاسم الذي تحمله وما يحمله من دلالة على القصور إلا أنّها أقفرت، وكان اسمها شائعاً في الأفق، ولكنه ليس له صلاح في الفصل.

وختاماً يمكن القول: إنَّ الانعكاسات النفسية تمثلت بكثرة في الرحلات، لأن طبيعة الحياة تعتمد على الانعكاسات التي تراها النفس في مسارها من خير وشر وسلب وإيجاب.

الخاتمة

إنّ التواصل اللغوي هو السمة البارزة لوظيفة اللغة،ومن أجل ذلك كانت طرق الحج ذات أثر إيجابي في عملية التواصل، لأنّها كشفت عن استعمالات لغوية مميزة، تدل على تمتع السكان بالفصاحة والشعر والأمثال.

إنّ طرق الحجيج الإفريقية تمثل رافدا مهما من روافد التواصل اللغوي؛ لأنّها كشفت عن عادات وتقاليد السكان المحلين من جهة– كما في مدن عيذاب، ومصر،وبرقة، وطرابلس وغيرها – وعادات وتقاليد ممن مروا بقوافلهم من هذه المدن أو الطرق.

لقد سجل أصحاب الرحلات ملاحظات لغوية مهمة جدا على صعيد المستويات اللغوية في الصوت ، والأسلوب، والتركيب ، واللغة كانت سائدة في الاستعمال اللغوية عند السكان المحلين ، وهذه الاستعمالات اللغوية قد تركت أثرا إيجابيا في نفوس الحجاج.

كان لطرق الحج الإفريقية أثر نفسي في الحجاج عن طريق الانطباعات التي تتركها تلك الطرق من إيجاب أو سلب كالشوق للديار والأهل ،أو الشوق لمدينة طيبة والبيت الحرام، فضلا عن الانطباعات التي يسجلها الحجاج عن المدن التي مروا بها، وهذا تجلى عند بعضهم بإنشاد الشعر أو ضرب الأمثال ،أو التعبير بالكلام المنثور عن طريق وصف تلك الطرق والمدن.

شكلت تلك الملاحظات اللغوية إحدى مظاهر التواصل اللغوي، وهي ظاهرة التقارض اللغوي بين اللغة المستعملة من قبل السكان المحلين، وبين ممن وفد على طرق الحج الإفريقية لأداء الفريضة ومناسك الحج، إذ كان لتفاوت الاستعمال في الأسلوب والتركيب دلالة في تقارض المعاني وبالمحصلة التواصل اللغوي.

قائمة المصادر والمراجع

١. القران الكريم
٢. الإتقان في علوم القران/ جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم،دار التراث،القاهرة د ت.
٣. أدب الدنيا والدين/علي بن محمد أبو الحسن الماوردي(ت ٤٥٠هـ) دار الكتب العلمية ط١ بيروت ١٩٧٨.
٤. الأدب الصغير والأدب الكبير/ابن المقفع (ت١٤٢هـ) دار صادر بيروت د ت.
٥. إستراتيجية التواصل اللغوي في تعليم وتعلم اللغة العربية (دراسة تداولية)/شيباني الطيب ،رسالة ماجستير،جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر ٢٠١٠.
٦. إستراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية/ عبد الهادي بن ظافر الشهري ،دار الكتاب الجديد ،ط١ بيروت ٢٠٠٤.
٧. الأمثال العربية والعصر الجاهلي (دراسة وتحليل)/ د محمد توفيق أبو علي ، دار النفائس للطباعة والنشر ،ط١ بيروت ١٩٨٨.
٨. الأيام والليالي والشهور /يحيى بن زياد أبو زكريا الفراء (ت ٢٠٧هـ) تحقيق وتقديم إبراهيم الابياري ،دار الكتب الإسلامية ،ط٢ القاهرة ١٩٨٠.
٩. البيان و التبيين/عمرو بن بحر أبو عثمان الجاحظ(ت٢٥٥هـ) تحقيق عبد السلام هارون ، دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٦٩.
١٠. التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه / د رمضان عبد التواب ، الناشر مكتبة الخانجي ، ط٣ ، القاهرة ١٩٩٧.
١١. تقارض الألفاظ في الدلالة والإعراب / د سندس محمد خلف ، مركز البحوث والدراسات الإسلامية ،ط١ بغداد ٢٠٠٩.
١٢. التواصل اللساني والسيميائي والتربوي / د جميل حمداوي ، شبكة الالوكة موقع الانترنيت .
١٣. التواصل اللساني والشعرية/ الطاهر بو مزبر ،منشورات الاختلاف، ط١ ،الجزائر، ٢٠٠٧.
١٤. التواصل واللغة / أ سهير الحلفاوي ، موقع الانترنيت.
١٥. التوجيهات والآثار النحوية والصرفية للقراءات الثلاث بعد السبع لأصحابها أبي جعفر(ت١٣٠هـ)، ويعقوب البصري (ت ٢٠٥هـ) ،وخلف الكوفي (ت ٢٢٩هـ)،/ د علي محمد فاخر ، مكتبة وهبه ،ط١ ، القاهرة ١٩٩٩.
١٦. الخصائص /ابو الفتح عثمان بن جني (ت٣٩٢هـ) تحقيق محمد علي النجار ، دار الشؤون الثقافية العامة ، ط٤ ، بغداد ١٩٩٠.
١٧. الدراسات الصوتية عند علماء التجويد / د غانم قدوري الحمد ، مطبعة الخلود ،ط١ ، بغداد ١٩٨٦.
١٨. ديوان النابغة الذبياني / شرح وتقديم عباس عبد الساتر ، دار الكتب العلمية ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٩٦.
١٩. رحلة ابن جبير /محمد بن أحمد بن جبير (ت٦١٤هـ)/دار صادر ، بيروت ، د ت.
٢٠. رحلة ابن خلدون / عبد الرحمن محمد بن خلدون(ت٨٠٨هـ) عارضها بأصولها وعلق حواشيها محمد بن تاويت الطنجي ، دار الكتب العلمية ،ط١ ،بيروت ، ٢٠٠٤.
٢١. رحلة ابن رشيد السبتي محمد بن عمر (ت ٧٢١هـ) دراسة وتحليل د أحمد حدادي ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المملكة المغربية ،٢٠٠٣.
٢٢. رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة/د عبد الهادي التازي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ، الرياض ، ٢٠٠٥.
٢٣. الرحلة العياشية /عبد الله بن محمد العياشي (ت ١٠٩٠هـ) / حققها وقدم لها د سعيد الفاضلي ، د سليمان القرشي ، دار السويدي للنشر والتوزيع ، ط١ ، أبو ظبي ،٢٠٠٦.

٢٤. الرحلة المغربية محمد أبو عبد الله العبد ري (ت ٧٠٠هـ) تقديم د سعد بو فلاقة ، منشورات بونة للبحوث والدراسات ٢٠٠٧.
٢٥. سر الفصاحة / عبد الله محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) دار الكتب العلمية ، ط١، بيروت ١٩٨٢.
٢٦. شرح كتاب سيبويه/ الحسن بن عبد الله أبو سعيد السيرافي (ت٣٦٨هـ) تحقيق أحمد مهدلي ، و علي سيد علي ،ط١ بيروت ، ٢٠٠٨.
٢٧. شرح مثلثات قطرب محمد بن المستنير (ت ٢١٠هـ) شرح وتعليق إبراهيم مقلاتي بيروت ، د ت.
٢٨. صبح الأعشى في صناعة الإنشأ / أحمد بن علي القشلشندي(٨٢١هـ) شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ،ط١، بيروت ١٩٨٨.
٢٩. الصحاح وتاج العربية / إسماعيل بن حماد الجوهري(٣٩٣هـ) تحقيق أحمد عبد الغفور العطار، مصر ١٩٥٦.
٣٠. ظاهرة التقارض في النحو العربي / د أحمد محمود عبد الله /مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة العدد ٥٨ . ٥٩ لسنة ١٤٠٣هـ .
٣١. ظاهرة التقارض النحوي في القران الكريم / سوزان عبد الواحد ، مجلة جامعة الانبار للعلوم الإسلامية ، العدد ٣ المجلد ١ ، ٢٠٠٩.
٣٢. علل اللسان وأمراض اللغة رؤية لغوية إلكينكية وانعكاساتها الاجتماعية / د محمد كشاش ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر ،ط١ ، بيروت ١٩٩٨.
٣٣. علم اللغة الاجتماعي عند العرب / د هادي نهر ، دار الغصون ، ط١، بيروت ، ١٩٨٨.
٣٤. القاموس المحيط / محمد بن يعقوب الفيروزابادي (ت٨١٧هـ) دار الفكر ،بيروت ١٩٧٨.
٣٥. القراءات القرآنية بين الدرس الصوتي القديم والحديث / د مي فاضل الجبوري ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ٢٠٠٠.
٣٦. الكتاب / عثمان بن قنبر أبو عمرو سيبويه (ت١٨٠هـ)تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، ط٢ ، القاهرة ١٩٧٧.
٣٧. الكفايات التواصلية والاتصالية / د هادي نهر ، دار الفكر ،ط١ الأردن ، ٢٠٠٣.
٣٨. لسان العرب / محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١هـ) حققه وعلق عليه عامر أحمد حيدر ، دار الكتب العلمية ، ط٢ ، بيروت ، ٢٠٠٩.
٣٩. اللغة وعلم النفس / د موفق الحمداني ، دار ومطابع جامعة الموصل ،ط١، ١٩٨٢.
٤٠. مباحث في علم اللغة واللسانيات / د رشيد عبد الرحمن العبيدي ، دار الشؤون الثقافية العامة،ط١ ،بغداد ،٢٠٠٢.
٤١. مجمع البيان / الفضل بن الحسين أبو علي الطبرسي (ت٥٤٨هـ)، مكتبة دار المجتبى ، النجف الاشرف، ط١، بيروت، ٢٠٠٩.
٤٢. المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية / اختيار وتهذيب وفهرسة د محمد بن حسن بن عقيل موسى الشريف ، دار الأندلس الخضراء،ط١، جدة ، ٢٠٠٠.
٤٣. مدخل في تكنولوجيا الاتصال الاجتماعي / محمد محمود مهدلي ، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ١٩٩١.
٤٤. المزهر في علوم اللغة وأنواعها/ جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) تحقيق أحمد جاد الحق المولي وآخرين،مطبعة عيسى البابي الحلبي ،١٩٥٨.
٤٥. المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي / د محمد عويد الطربولي ، دار الرضوان للنشر والتوزيع ، ط١ ، الأردن، ٢٠١٢.

٤٦. المكان في شعر الشريف الرضي / زينب عبد الكريم حمزة ' رسالة ماجستير ، جامعة الموصل ، ٢٠٠٢.
٤٧. معجم البلدان / ياقوت الحموي(ت ٦٢٦هـ) دار صادر، بيروت ، ١٩٧٧.
٤٨. معجم مقاييس اللغة / أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ) تحقيق عبد السلام هارون ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، د ت .
٤٩. المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة / أبو إسحاق الحربي (ت٢٨٥هـ) ، تحقيق حمد الجاسر ، الرياض ١٩٦٩.
٥٠. الهمزة في دراسات القدامي والمحدثين دراسة لسانية / كامل ناصر الزيدي ، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت ، ٢٠١١.